

انتحار السنديان

«ولا تحن إلى الغائب بحضوره والمفسد بغيابه،

ازهد ولاتشتهِ مفاجأة لن تأتي وشعوراً لن يكون»

دينا الدخس

داركتاب للنشر والتوزيع



مسئول النشر

طارق رمضان

مدير التوزيع

عمر عبد السميع

مدير العلاقات

مها عادل

الطبعة الأولى
الكتاب : انتحار السنديان
تأليف : دينا الدخس
تصنيف الكتاب : رواية
مصمم الغلاف : عبد الرحمن سندوبى
إخراج : أحمد عبد الرحمن
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٠٤٠٣ / ٢٠١٨
الترقيم الدولي : 9 - 25 - 6597 - 977 - 978

العنوان : ٤٧ تقاطع الفلكي مع محمد محمود - القاهرة - مصر

التليفون : ٠١٠٩٧٥٥٣٣٢٨

Email : darkitabone@gmail.com

إهداء

إلى كل المُلْهَمين المجهولين

إلى كل جميلة لم تدرك سرها

إلى دراويش العشق المجهولين

إلى العاكفين فى محرابهم المنزه عن براثن الشهوات

إلى كل من يعيشون علاقات شائكة

إلى الصامتين القابضين على آلامهم فى سكون

إلى الحلم الذى لاينطفئ

وإلى العهد الذى قطعته

إلى من أكتب عنهم ولأجلهم

دينا الدخس

مبتدأ

« من أسوأ الأشياء التى قد تتسبب فيها لشخص يحبك أن تجره إلى حالة «الصمت الجبرى»،عندما لا يكون صمته خياراً مفضلاً، بل إكراهاً ولعنةً تقتله يومياً. أتدرى لماذا؟ لأنك سلبته حريته فى الحديث معك، عاقبته على مطالبته بحقوقه واتهمته بالأنانية والجحود، لأنك سلبته كينونته وحرَّمت عليه حق العفوية فى حضورك، أن يكون ذاته بلا زيف أو تخطيط وحساب مسبق لمجرى الكلمات. هذا الصمت مُميت، كأنك تكمن نارًا فى حشاك طوال الوقت، هو اغتراب بلا غربة ووحشة رغم الزحام»

هكذا اختتمت مذكراتها التى وجدتها منغمسة بين ملابسها، حاولت مقاومة الفضول الذى اعترانى؛ لكنه تمكن منى و كانت الغلبة له، فقرأتها وحيرتى تزداد مع كل صفحة تطوى، لم أتمكن من استيعاب الأمر، كانت الجمل غير مترابطة تنم عن فوضى جسيمة فى الأفكار، لن تتمكن من التوصل

بهدايتها إلى تصور يجعلك تفهم من خلاله كيف انتهى الأمر حقاً.

هل ابنتى عليلة كما قال الأطباء، أم أنها تمكنت من خداع الجميع؟ هل فعلتها حقاً؟ فإن أخذنا بتلك الفرضية المخيفة، هل كانت تعي ما تفعل أم أن الوعى لديها قد تشوش كما قالوا، و لم تكن تعقل أفعالها؟ وماذا عنت بتلك الفقرة الأخيرة، والتى من شأنها أن تنفى علتها وتثبت أنها كانت فى كامل صحتها ووعيها؟

أياً كان الجواب، قررت أن أحرق تلك المذكرات، فمهما كان الجواب فقد استحق ذلك المخبول ما أصابه ولن أسمح بأن يمسها المزيد من الإملاق والقهر.

قامت بخطوات وئيدة، حاملة المذكرة معها واتجهت إلى المطبخ، سحبت أكبر أوانى الطبخ المصنوعة من «الاستنالس ستيل» ووضعت بها المذكرة وأشعلت النيران، ووقفت تشاهد صفحاتها وهى تذوب فى قلب النار وتختفى تدريجياً وتحال إلى رماد هزيل لن يصمد أمام نفخة هواء.

وإذا بها ترسم المشهد الأخير لتلك القصة البائسة، تلك المرأة التى عاشت حياتها بكماء، خانعة قررت أخيرًا أن تصنع شيئاً وتتم الأمر.

مراقبة

ها أنا جالس فى صمت مميت، أراقبها عن كثب، امرأة ماتت وهى على قيد الحياة، غضة العود، بضة الوجه، آية فى الجمال؛ ولكنه جمال جامد لاينطق ولايشعر بشيئ، لوحة ثابتة ينقصها إطار ويصبح الحائط محلها الأنسب.

أتساءل هل ما حدث لها ذنبى أم ذنبها؟ أيحدث هذا لأننى تمردت على امرأة طالما أحبتنى بشغف، وأغدقت علىَّ من نبع أحاديثها ومزاحها و شكواها؟ أذنبها أنها أرادتنى لها كل شئ بعد أن حاولت جاهدة أن تكون لى كل شئ؟ أيكون رد الجميل النكران، فالخذلان، فالتبلد؟ أعقابها هذا أم عقابى الأبدى، هل رحمها الله من العذابات التى أسقيتها إياها كل يوم لتنتقل إليَّ و تطعننى فى اليوم ألف مرة.

كثيراً ما استجارت بى منى ولم تحاول أن تشكونى لأحد إلا بعد أن حاولت قتلها، وأنا جعلت من لعنها وتبرمى منها تسلية لى، كثيراً ما استضعفتها وقمت باستغلال قلة حيلتها أحط استغلال، حبيبتى لم تكن يوماً ضعيفة، ولم تكن يوماً قليلة الحيلة، ولكنها أحبتنى وأرادت أن تشركنى معها فى كل شئ، صانت سيرتى وأنا قطعتها إرباً بسكين ثلمة. ما أحقرنى وما أجملها.

كم أنا بائس، يصب الكون جم غضبه علىَّ وكأنه ينتقم ويجبرنى على التكفير عن ذنوبى الفادحة وعن أنانيتى، يمطرنى بالألم ليطهرنى به من العفن الذى أصاب روحى، ويجلد نفسى لتتهذب ولكنه يبدو عذاباً بلانهاية، طريقاً مفتوحة بلا نقطة وصول، بلا عنوان محدد بلا مرسى . تقوم من مجلسها فأقوم خلفها فى هدوء؛ اعتدنا عليه فى الفترة الأخيرة منذ نجاتها من ذلك الحادث المريع، وتتجه نحو غرفة النوم فتغوص فى نعومة تحت الغطاء وتُغمِض عينيها لتروح فى سبات سريع وأنا مازلت واقفاً أشاهد هذا المشهد البطئ وغُصة حمقاء تصر على التفاقم مع كل ثانية تمر.

هرب النوم منى و ذهب إليها بعدما كنت أغط فى نوم عميق وتظل هى مستيقظة يؤنسها الليل ويعزيها الأرق الذى تحول إلى أعز أصدقائها.

أجلس شارداً، ثم يتسرب الثقل بعد فترة لا أعلمها إلى جفنيَّ، أغلق نافذتيِّ اللاتى تطلان على جسدها الراقد أمامى، تجثم على أنفاسى رائحة الدماء الساخنة، هذه رائحة الموت التى أعرفها حق المعرفة وتمامها، لم أحاول أن أرى أو أقاوم مايحدث، لم يعد يعنينى إذا ما كان حلماً أو حقيقة، أعجبنى الاستسلام والترحيب بزائرى، انتشيت بالألم والرائحة واقتراب الخلاص.

***

عاليا

الضوضـاء تـرج الأركان التـى طالمـا كانـت سـاكنة، تقتحـم زوايـا المنـزل الكئيـب الـذى لا يصـدر صوتـا عنـه إلا بالتهكـم أو الشـجار أو النـواح. منـزل، يمثـل النمـوذج الأمثـل لكآبـة الغربـان بنعيقهـا الـذى يقلـص الـروح وتتسـرب منـه رائحـة المـوت.

طالمـا حلمـت بالهـروب أو السـفر، سيان لا فـرق بينهمـا فهمـا فى النهايـة وحـدة اختياريـة و أفضـل مـن وجـود أجسـاد تحيـا حولـك لتمتـص كل مافيـك مـن طاقـة وروح.

اليـوم، هـو اليـوم الـذى تحلـم بـه كل فتـاة عاديـة؛ أو هكـذا تربينـا، اليـوم الـذى ترتبـط فيـه برجـل تصُـب عليـه آمالهـا وأحلامهـا فى النجـاة مـن الجحيـم الـذى تغـرق فيـه، يـوم ترتـدى الفسـتان الأبيـض و تتـم معاملتهـا كملكـة متوجـة مـن حقهـا أن تُخـرِج مـا بداخلهـا مـن توتـر وقلـق وخـوف ومخـزون سـنوات مـن الانكسـار والكبـت النفسـى وتسـكبه علـى كل مـن حولهـا دون أن تسـمع كلمـة تعنيـف أو تتعـرض لمحاولـة ردع.

هـى العـروس، التـى يراقبهـا كل الحضـور، منهـم مـن يقـوم بمصمصـة الشـفاه والنظـر إليهـا غيظـاً وحقـداً؛ لأنهـا فـازت عليهـم أو عـلى بناتهـن فى السباق ولحقـت بالقطـار، أو أنها رفضت الـزواج مـن عريـس الغفلـة ،»اسـم النبـى حارسـه و صاينـه« المحـروس ابنهـا اللقطـة، الـذى لايعيبـه شـئ و تتمنـاه كل فتـاة؛ ولكنـك لـن تعلـم أبـدا لمـاذا مـازال أعزبـاَ يجلس بجانـب والدتـه فى كل الأفـراح التـى تقـرر حضورهـا وتسـوقه إليهـا كالخـروف.

ومنهـم مـن يقـوم بـدور المجهـر، يقـضى الليـل بطولـه بـين النقـد و السـخرية فتتحـول فجـأة مـن عـروس إلى أنثـى القـرد فى ثـوب أبيـض تـؤدى دوراً صُمِـم خصيصـاً لهـا فى السـيرك المزمـع عـلى تسـميته ب»الفـرح«.

ولكنـى كنـت مسـتمتعة بـكل هـذا وأشـعر أننـى محـور كل شـئ ولأننـى أعلـم جيـدا أنـه إحسـاس نـادر ومؤقـت وربـما لا أشـعر بـه مـرة أخـرى، قـررت أن أتشـبث بـه وأبالـغ بالاسـتمتاع بالمزايا التـى يمنحهـا لأبلـغ منتهـاه ونشـوته.

تعرفـت عـلى خالـد فى ظـروف شـديدة الغرابـة والتلقائيـة أو هكـذا خُيِّـل لى. كنـت قـد انتهيـت مـن أول امتحـان لى لآخـر سـنة جامعيـة و كنـت خارجـة أركـض حتـى أسرع بالعـودة إلى المنـزل لأبـدأ فى اسـتذكار المـادة الثانيـة والتـى كان يفصلهـا عـن التـى تسـبقها يـوم واحـد فقـط، فتعثـرت وأنـا أركـض ووقعـت أمـام

البوابـة وتناثـرت أوراقـى فى كل اتجـاه، ولكنـى لم أعبـأ بلملمتهـا فـكل مـا كان يعنينـى فى تلـك اللحظـة هـو أن ألملـم كرامتـى التـى تبعثـرت مـع السـقطة وأركـض ثانيـة، ولكـن تلـك المـرة هربـاً مـن العيـون التـى ظلـت تراقبنـى والضحـكات العاليـة والغمـز واللمـز والنـكات التـى بـدت كأنهـا لـن تنتهـى.

وجـاء يـوم الاختبـار الثانـى وكان قـد مـر بسـلام و بـدا أن الجميـع قـد تناسـوا مـا حـدث . مـر اليـوم طبيعيـاً وعاديـاً للغايـة، ولكـن بمجـرد أن أخرجـت جسـدى مـن بوابـة الجامعـة وأنـا غارقـة كالعـادة فى أحلامـى بالابتعـاد والهـروب مـن الجحيـم الذى قضيـت طفولتـى وسـنوات مراهقتـى فيـه، وجـدت يـدا سـقطت مـن السـماء لتوضـع عـلى كتفـى وتسـتوقفنى ثـم سـمعت صوتـا ينطـق اسـمى فى اسـتفهام : عاليـا؟

– فالتفـت متسـائلة عـن الشـخص الـذى يبـدو صوتـه غريبـا عـلىّ كـما يبـدو أنـه يعـرف اسـمى.

– وقلت له: من أنت؟ و كيف تعرف اسمى؟ و ماذا تريد؟

– قـال هدئـى مـن روعـك قليـلاً، لقـد رأيتـك وأنـت تنكبّـين عـلى وجهـك فى ذلـك اليـوم، ولملمـت بعضـا مـن أوراقـك المتناثـرة وسـألت حـرس الجامعـة عـن اسـمك وأسرَّ بـه إلىّ بعـد أن أعطيتـه «ورقـة بخمسـة» ؛قالهـا وانفجـر ضاحـكا، فأعـاد إلىّ تلـك الذكـرى

المحُرِجة و شعرت بمعدتى تتقلص وصوتى يُحصر فى حنجرتى وشعرت بحبيبات العرق البارد تظهر خجلى فوق جبينى الصغير. وقتها رأيته يفوقنى قوة و ثباتا، رأيته مسيطرا متحكما وكرهته وقتها كثيرا وتخيلت نفسى أنقضّ عليه وأقضم العِرق البارز فى عنقه ثم أحتفل بالرقص و شرب دمه البارد فى كأس ذهبى.

ولكننى تمسكت بالصمت وتمالكت نفسى ثم استدرت واندلفت أمام ذهوله من تصرفى.

ليلتها لم أستطع التركيز فى شئ ورغم ساعات الليل الطويلة والتى قضيتها فى القراءة إلا أننى لم أُحَصِّل أو أتذكر الكثير مما مرت عليه .لقد كنت فى عالم آخر أعانى من أحاسيس غريبة و مختلطة صعب على تفسيرها حينها و لكننى الآن وبعد فوات الأوان، فهمت.

بدأت فترة الامتحانات النهائية طويلة ومملة، حتى جاء اليوم الأخير وكما جرت العادة، تبادلت أنا وزملائى الوعود بعدم الافتراق وعدم نيتنا السماح للحياة بأن تأخذ منا رفقاء الدرب وزملاء الدراسة، كما تبادلنا التوقعات والكلمات المُطعمة بلهيب المشاعر الجميلة فى المفكرات الصغيرة التى اتفقنا على شرائها، وأقمنا احتفالا بالتنسيق مع إدارة الجامعة لنختتم تلك الفترة بذكرى سعيدة.

وإذا بـه يظهـر مـن اللاشـئ، فجـأة أراه واقفـا فى ثبـات وثقـة كالمرة الماضيـة ،ولكـن بـدا عليـه شـئ مـن القلـق، فشـعرت بنشـوة انتصـار طفيـف وأدركـت أننـى علقـت فى ذهنـه كـما علـق هـو و رفـض أن يتركنـى خـلال الأيـام الماضيـة ومنـذ اللقـاء الأول.

تعمدت أن أنظر إليه فى عينيه ثم أستدير متجاهلة إياه، غيرعابئة بوجوده وكأننى أبعث إليه برسالة مفادها أن وجوده غير مرحب به على الإطلاق. ولكـن يبـدو أنـه استطاع أن يشـم الرسـالة التى كنـت أحـاول أن أخفيهـا عنـه والتـى هـى عـلى النقيـض تمامـا.

اقـترب منى، هـادئ الخطى يتسـلل كالثعبان قبـل الانقضاض عـلى فريسـته واعتصارهـا ،مواظبـاً عـلى ابتسـامته المسـتفزة التـى زينـت وجهـه الجـذاب، فأغاظتنـى. نعـم لقـد أردتـه أن يتقـدم منـى، أن يتـوق إلى اهتمامـى بـه، أن أتحـدث معـه وأسـمعه صوتـى تـارة أخرى، أردت أن أذلـه كـما أردت أن أحرجـه، لا أعلـم كيـف نشـأت هـذه المشـاعر الغريبـة تجاه شـخص لا أعـرف عنـه شـيئا و لم أقـف معـه سـوى خمس دقائـق عـلى الأكثـر.

ربـما المصـير هـو الـذى قـام بـإدارة الأمـر كالمخـرج الـذى يتحكـم فى مشـاهد فيلمـه ويوجـه الممثلـين ليقومـوا بـما يريـد، لتخـرج لنـا قصتـه فى النهايـة كـما أراد لهـا أن تكـون، تـاركاً لهـم الظـن خطـأً بـأن الدفـة فى أيديهـم فـلا يكتفـى بخداعهـم، بـل ويحملهـم وزر سـوء الظـن.

قال لى وهو يتوقف أمام وجهى مباشرة؛ حتى أنه حجب عنى رؤية أحد الزملاء وهو يغنى أغنية طربية لا أتذكرها :

- خالد، اسمى خالد

- وأنا لم أسألك، وحاولت التحرك من مكانى إلا أنه اعترضنى قائلا:

- آسف عما بدر منى، حقا لم أقصد و كل ما أريده هو أن أتحدث إليك قليلا.

- فقلت و أنفى يكاد يطير من العلو الذى صار عليه:

- أنت تتحدث بالفعل ويكفى هذا. أما عن اعتذارك فتقبلته.

استدرت و ذهبت لأنضم إلى باقى العصبة التى كانت تراقب المشهد من بعيد فى جدية . ظل زملائى يحاولون تفسير لغة الجسد للحوار الثنائى الذى كان قائما منذ قليل؛ لأنهم لم يكونوا فى موقع قريب يسمح لهم باستراق السمع .

قالت سمية:

- يبدو أنه معجب ولهان، وانفجرت ضحكتها الرقيعة التى فشلنا فى علاجها.

أما حنان فقالت:

- من هذا الشخص المريب، يبدو كجان سينما، هل هو قريب لك؟

وأخذت أستمع إلى أسئلتهم وتعليقاتهم حتى أستوقفتنى جملة قالها أيمن والتى أدرك الآن أنه كان محقا مئة بالمئة فيها وأنه الوحيد الذى تمكن من رؤية الأمر مجردا إياه من اللمعان الذى كان يخفى الحقيقة.

يومها قال:

«أنا لا أعرف من هذا و لكننى أريدك أن تحذرى منه، فأمثاله يتأرجحون بين القوة و النعومة و يؤرجحوك معهم حتى ينالوا مبتغاهم ثم يتطاير ريش الطاووس ويسقط القناع ليكشف عن وجه من غير الإنصاف أن يوصف بالقبيح!!»

وقتها اتهمته البنات بأنه أثار غيرته وتساءلن ساخرين عما يمتلك أيمن ليتفوق على هذا الوسيم الأنيق.

سكت أيمن ولم يعرهن أى اهتمام، وظل منذ هذا الموقف صامتا إلى اليوم. صمت أيمن لأنه صدق ولم يُصدَّق!

***

سار خالد خلفى بسيارته، حتى وصلت إلى المنزل فى سيارة أيمن الذى اعتاد أن يقوم بشحننا جميعا فى سيارته السيات

واعتراضه الشديد على ألا يترك أية واحدة من «الشلة» تذهب إلى المنزل بمفردها وسيارته تحت أمرنا جميعا، ولم ألحظ أنه خلفنا إلا بعد أن ترجلت من السيارة حينها لمحته وهو واقف تحت شجرة السنديان التى زرعها جدى بنفسه أمام المنزل منذ سنوات طويلة قبل رحيله المفاجئ.

لن أكذب على نفسى، لقد شعرت بالغبطة والرضا وأننى الآن فقط على استعداد أن أعطيه فرصة ليقترب ويرينى ما لديه لأقرر ما إذا كان هو الهروب الملائم لى من هذا الجحيم أم لا.

لم أفكر حينها فى الحب، فأمى أحبت أبى كثيرا؛ كما قال لى جدى، وكانت النتيجة أنها قضت حياتها معه فى سجن مرير لا يخرج لها حِس، ولكن ليس هذا السبب وحده، الحقيقة أننى آمنت بعدم أهليتى للحب، فأنا حقا لم أعرف كيف أحب أو كيف أعطى، لا أعرف إذا كنت أحب أمى أم ألعنها لأنها اختارت أبى دون الخلق أجمعهم ليكون لى هذا الأب البغيض، ولا أعرف إذا كنت أكره أبى أم أشفق عليه لحماقاته التى تضره أولا ثم تنشر عدواها لتصيب الجميع بالبأساء. لا أتذكر أننى قلت يوما لأخى أحبك ولا أتذكر إن كان قد قام بنفس الشئ معى، بل لا أتذكر إن كان قد قام يوما بأمر جيد لأجلى.

لذلك، ففكرتى عن الزواج كانت تتلخص فى كلمة» الخلاص» حتى ولو كان خلاصا لا يدوم معه زواج، حينها

سـأكون حـرة نفسـى و إن لم أهنـأ معـه سـأتركه لأهنـأ بالسـكينة بعيدا عـن النـاس الذيـن اتخـذوا مـن الحجر عـلى حريتـى والتحكم بأفـكارى وأحلامـى هوايـة يمارسـونها للتسـلى.

رأيـت فى خالـد «المرشـح المناسـب» ليقـوم بـدور المُخلِـص، ولكـى أتأكـد قـررت أن أوافـق عـلى مقابلتـه بعـد طلبـه الـذى تكـرر بعـد الحفلـة حينـما ظهـر لى كالعـادة فجـأة مـن خلـف شـجرة السـنديان، تلـك الشـجرة التـى شـهدت عـلى الكثـير لدرجـة أننـى حـين أقـف أمامهـا أشـعر بأنهـا تـكاد تنطـق بـما قبضـت ليـه وكتمتـه فى قلبهـا لسـنوات. رأيتهـا تشـيخ عامـا تلـو الآخـر كلـما مـات منـى جـزء .ترابطنـا دون أن نتفـق وكأن جـدى لأمـى زرعهـا خصيصـا مـن أجـلى، لقـد سـألته يومـا وأنـا طفلـة لم أتجـاوز العـشر سـنوات عـن سـبب زراعتـه لتلـك الشـجرة الضخمـة أمـام منزلنـا فأجابنـى: بأنـه زرعهـا لترتفـع نحـو السـماء وتطـل عـلى شـباك غرفتـى لتذكرنـى. وأتذكـر أنـه صمـت بعـد جملتـه تلـك و كأن أمـراً مـا قـد مـر عـلى بالـه فجـأة وظننـت أنـه سيسـتكمل كلامـه، ولكنـه لم يفعـل وكأنـه نسـى أو تناسـى فسـألته «لتذكرنـى بـماذا ياجـدى؟»، فنظـر إلى وجهـى بعينيـه الدافئتـين وقـال «بأنـك مثلهـا مهـما صـار».

وفى أحـد أيـام الصيـف التـى اشـتد فيهـا القيـظ حتـى صـار تعذيبـا، رأيـت اسـم أخـى يعلـن انتظـاره إلى سـماع صوتـى فى

مكان ما على الأرض، والذى كان بالأمر النادر الذى ما إن حدث حتى أدركت أن هناك كارثة فى الانتظار، أجبت على اتصاله : «آلو.. خير ؟»

«تعالى بسرعة، جدك عايزك»

– سكت، وابتلعت ريقى بعسر ثم قلت:

– «حالحق؟؟»

– «ما اعرفش، إنجزى» ثم أغلق الخط

وكأننا قررنا أن جدى يحتضر ولم يتبق الكثير من الوقت كنت لحظتها مع زميلاتى فى الجامعة نقوم باستخراج أوراقنا، فوجدت نفسى أركض بلا توقف، السائل الساخن الشفاف ينهمر لى وجنتاى، وأنا أحدث نفسى: «إن مات جدى، من بقى لى؟»

دخلت إليه دون استئذان، جلست على الأرض بجانب فراشى الذى كان مستلقيا عليه فى وداعة وهدوء، تأملت ملامح وجهه فلم أجد فيهما أى آثار للألم، تحسست وجهه والتجاعيد التى رسمت لوحة غاية فى العبقرية وأنا أهمس: «جدو... إنت صاحى؟»

فتح عينيه العسليتين ونزر إلىَّ وابتسم ابتسامته الصافية، تلك الابتسامة التى كانت سلوانى وأرضى ومسكنى طوال

السنوات الماضية، عندما يزورنى جدى أشعر بأن العيد قد دق أبوابه، أبتهج وأتحمس ويملأنى النشاط فى الوقت الذى ينزوى فيه أبى ويختبئ داخل غرفته أو يترك المنزل ولا يعود إلا مع أذان الفجر.

- أجابنى: «نعم، عاليا، حبيبة جدو» ثم وجه بصره تجاه النافذة التى كانت تطل علينا منها شجرة السنديان.

- «أريد أن أسر إليك بأمر، لقد زرعت تلك الشجرة لتذكرنى بجدتك رحمها الله، وعندما جئت إلى الدنيا رأيتها فيك يا صغيرتى، السنديان شجرة ذو بأس شديد، تتحمل الكثير من المشقة وتستطيع أن تصمد أمام النوائب والكوارث، منها الثمار المرة والحلوة أيضا، تذكرنى بجدتك فى التمسك بالأرض رغم الخطوب والنوائب، اعتادت أن تقول لى: «أنت أرضي يا عبد الظاهر، وأنا جدرى فى الأرض دى مهما حصل»، كونى مثلها يا عاليا، أنا أشعر بحيرتك ونارك وأحزانك، لا تستسلمى لها فأنت «سنديانة» رائعة الجمال، وستعيشين طويلا مثلا، إن ذبلت ذبلت وإن أينعت أشرقت.

رحل جدى الحبيب، وتركنى بين هؤلاء الغرباء الذين يعيش جسدى بينهم، بينما روحى عالقة فى شجرتى الحبيبة تشتاق إلى عطر جدى وابتسامته الرائقة.

أيتها الشجرة الحبيبة، اشهدى وتذكرى فأنا لم أعد أتذكر، ولأصدقك القول: لا أريد.

***

مر اللقاء الحقيقيى الأول طبيعياً، لا يعتريه أى نوع من الغرابة التى خيمت على اللقاءات السابقة. تحدث عن نفسه كثيراً فأدركت أنه لا يحبها فقط بل يعشقها حد العتو والغطرسة، فهو فى نهاية الأمر الولد الوحيد»الحيلة« كما تقول أمه ومن حقه أن يدلل ويأمر فيُجاب . نشأ معتدا بنفسه، يفكر فيها قبل أى شخص على وجه البسيطة مهما كان ولقد شجعه والداه على هذا الأمر ولم يفكرا يوما فى تعنيفه على أنانيته أو محاولة تقويمه لأنهم لم يجدوا عيبا وإذا لم يوجد عيب فلم التقويم.

لم يذكر لى أخته إلا بصورة عابرة و بدا لى الأمر وكأنه لايعترف بأهمية تشكلها أو بضرورة لوجودها فى الحياة إلا أن أبويه قد فعلا حسنا حينما قاما بإنجابها أنثى، لتخدمه و ليس ذكرا يسحب البساط من تحت قدميه الناعمتين.

خالد كان يمثل كل ما أمقته فى الرجال فهؤلاء حتى لا أحتسبهم رجالا وألقبهم سرا ب»المتشبهون بالرجال«.كان يُذكِّرنى بأبى الذى لم يقل يومًا كلاما ككلام خالد معى، ولكنه ترجم كل حرف مما قيل إلى أفعال غُرِسَت فى ذاكرتى منذ

بدايات طفولتى المشوهة و تنامى معها الإحساس بالغضب والكراهية لقلة الحيلة وعدم القدرة حتى على البوح، فكبرت كفقاعة ممتلئة عن آخرها وتغلى فى باطنها وتنتظر فقط الحافز الأخير لتنفجر فى وجه الجميع ممن لهم ذنب فيما وصلت إليه وممن لايملكون من الأمر شيئا، فلحظة الغضب خاطفة ومضللة تأكل كل ما يقف فى طريقها دون تنقيح، وربما هذا؛ بالإضافة إلى خوفى، جعلنى أقاوم الانفجار و أبدأ فى البحث عن خطة بديلة والتى من الممكن اختصارها فى «الفرار».

وكان من المفترض أن أنهى أى خط لعودة التواصل مع خالد مرة أخرى بعد حواره المقيت هذا، ولكننى دون وعى كررتها أكثر من مرة. وتعجبت من نفسى كثيرا، فطالما كنت أتساءل مستنكرة كيف لامرأة رائعة مثل أمى أن تتخذ قرارا انتحاريا كربط حياتها بشخص مثل أبى، كيف عميت وألقت بنفسها إلى هذا البئر الجاف، وها أنا أقوم بنفس الشئ، أسير نحو الجرف الذى أراه جيدا مستسلمة ومتنازلة عن كل القدرات النضالية التى أكتسبتها على مر السنين متعامية عن الصخور التى ستقتلنى والغرق الذى سيطوى صفحتى إذا سقطت.

رأيته آسرا، جذابا و شدتنى محاولاته المستميتة فى الفوز بى رغم علمى أنه يحب التحدى ويعشق الفوز مهما استعصى الأمر، فهو فى النهاية الفتى المدلل الذى لايتمنى أمرا إلا

و يحققـه أو يتسـلمه عـلى طبـق مـن الذهـب والمـاس. و رغـم شـعورى بأننـى «هـدف» و «شـئ» يريـده إلا أننـى أعجبـت بهـذا الشـعور وأدمنتـه وأخرسـت ناقـوس الخطـر الـذى ظـل يـدق بعـد كل لقـاء محـذرا إيـاى بـأن مـا أسـتمتع بـه لـن يـدوم عندمـا يـزول التحـدى وتحولـت بـين عشـية وضحاهـا إلى «أمـى». دفعنـى غيـاب جـدى إلى ارتـكاب حماقـة كلفتنـى مـا لا يمكـن أن يقـدر بأمـوال الدنيـا و كنوزهـا، لم أفهـم رسـالته الأخـيرة، وتملّـك الذعـر منـى فاقتلعـت جـذوره حتـى بـات عـودى هزيـلا ،هشـا تـذروه الريـاح.

خـلال ذلـك الحلـم، أهملـت أصدقائـى وتهربـت منهـم كثـيرا رغـم محاولاتهـم الكثـيرة لترتيـب لقـاء يجمعنـا إلا أننـى كنـت فى عالمـى الخـاص الـذى لم أرغـب بـأن أشرك فيـه أحـدا وربـما ولسـت متأكـدة بأننـى قـد كنـت فى وعـى كاف لأدرك هـذا الأمـر، لأننـى كنـت أتهـرب مـن نظـرات أيمـن و تعليقاتـه التـى تؤرِّقنـى بالأيـام. كنـت أخشـى مواجهـة نفسـى ولم أبـغِ أن يضعنـى أحـد أمـام مـرآة تعكـس الواقـع الـذى أدركـه جيـدا وأتجاهلـه عـن قصـد فـادح.

تـم الأمـر بسرعـة متناهيـة، ووافـق أبـى عـلى خالـد دون أدنـى اعـتراض أو تسـاؤل كأنـه وجـد فرصـة ذهبيـة ليتخلـص فيهـا منِّـى إلى الأبـد . لم يحـاول التحـرى عنـه كـما يفعـل جميـع الآبـاء، لم يحـاول أن يسـألنى حتـى عـن رأيـى فعندمـا جـاء خالـد أول مـرة بمفـرده كان رد أبـى سريعـا و حاسـما» عـلى البركـة»، ماهـذة

البيعة الرخيصة!! بهذة السهولة؟ كنت أتمنى أن يخيب ظنى و إحساسى ويثبتان أننى على خطأ، كنت أتمنى أن يقول «يجب أن أسأل ابنتى أولا»،أى شئ يعززنى به، أى شئ فبتصرفه هذا ظن خالد أن أبى يعرف كل شئ و يتظاهر بالجهل، ولم أحاول أن أقنعه بالعكس لأنه أكثر إهانة.

وجوه الأصدقاء لم تكن كما تعودت عليها، صافية، طبيعية حتى بآلامها وعقد الطفولة و العادات العجيبة لأصحابها، ولكنى لم أعر للأمر اهتماما أكبر مما يستحق، فاليوم ملكى أنا و لن أسمح لأحد أيا كان أن يسلبنى فرحة هذا اليوم.

وانتهى الزفاف وبدأت الحياة تعيدنى إلى الواقع الذى قضيت عمرى كله أحاول الهروب منه.

أحببته. نعم، رغم أنه نسخة منقحة قليلا وأكثر عصرية من أبى، إلا أننى وقعت فى نفس الفخ الذى وقعت فيه أمى منذ زمن ولم تتمكن من الخروج منه يوما. أوهمت نفسى بأننى أستطيع تغييره إلى ما أريد، فالحب يصنع المعجزات، وأنه حتى لا يشبه أبى و تلك قصتى....

***

البداية التى أردتنى

يالـه مـن لقـاء خـرافى، حـين يلتحـم جسـدان وينتقـلان مـن مرتبـة الغربـاء الهائمـين إلى مزيـج واحـد، يالـه مـن وهـج حـين تـذوب روح فى روح وتتحـدث الأنفـس بـلا كلـمات، ليتـه يبقـى، ليتـه يستمر إلى الأبـد دون زخـم الكلـمات وخيانـة التعبـير وصخـب الحـوارات. قضينـا أسـبوعين مـن أجمـل أيـام العمـر، بـلا اهتـمام بالوقـت ولهـث تضعنـا فيـه الحيـاة بـما تُحمِّلنـا مـن التزامـات ومسـؤوليات.

ولكـن لاشـئ جميـل وسـاحر مثلـه يسـتمر، فـذات صبـاح وقبـل الموعـد المحـدد لعودتنـا وجدتـه يقـول، قبـل حتـى تحيـة الصبـاح:

- «هـل لديـك مشـكلة إن عدنـا اليـوم إلى المنـزل، لقـد قضينـا مايكفـى ولـدى الكثـير مـن الأشـغال المؤجلـة»

ثم قام واتجه إلى المرحاض دون انتظار إجابة منى.

أما أنا فكنت بين النوم والصحو غير مدركة تماما للكلام الذى قيل ولكنى بعدما بقيت شاخصة فى سقف الغرفة المزين بأزهار وردية فى لوحة مريحة للأعصاب ومبهجة للنفس، أدركت أخيراً الأمر أو بمعنى أدق فهمت ماقيل لكنى لم أستطع تفسيره أو تبريره . وتساءلت هل المشاغل ظهرت فجأة فى الحلم مثلا أم ماذا تذكر تحديداً جعله يتخذ قرارا مثل هذا دون حتى أخذ رأيى بعين الاعتبار حتى وإن صيغ فى صورة استفهام إلا أن تصرفاته تحدثت عن نفسها ببلاغة يراها الأعمى. لقد تم اتخاذ القرار، شئت أم أبيت.

أفاقتنى تلك اللحظة على الحقيقة التى لم أرغب فى تصديقها؛ لقد انسكب العسل وآن الأوان للبداية التى طالما خشيتها، ستبدأ الآن الحياة رحلتها فى الكشف عن خبايا الإنسان الذى تزوجته غريبا عنى قانعة بالمنطق الذى حاولت أن أغالط به نفسى وحدسى.

خرج من حمامه يدندن ويتراقص وكأنه يستعد للاحتفال وبدأ فى حزم الحقائب حتى أنتهى من حمامى أنا الأخرى، وتساءلت هل من عادته أن يقوم بالأعمال بنفسه ولا يعطى الأوامر للمرأة التى تزوجها لخدمته كمعظم الرجال أم أن قرار العودة يثيره لدرجة أنه لا يستطيع تحمل الوقت الذى سيقضيه بين الأمر والتنفيذ، فآثر أن يتكبد مشقة العمل بنفسه.

المياه الساخنة تنساب على جسدى، تدغدغ مسامى فتنفتح لها لتحتضنها فيعجبنى الخدر الذى أصاب جسدى بفعلها وأقف مستسلمة لها، ولكن معدتى تأبى أن أستمر أكثر فى حالة النشوة تلك فتُعتَصر وتؤلمنى لتذكرنى بالإهانة التى تعرضت لها للتو وكأننى مومس استأجرها لبضعة أيام، ثم اكتفى أو مل فقرر العودة فجأة حتى أنه كاد يحتفل بهذه المناسبة.

***

وطأت قدماى لأول مرة البيت الجديد، لامست أرضيته الفاخرة بتوجس طفلة تذهب إلى المدرسة لأول مرة وتهاب المكان والناس، تحسستها ببعض الفضول والكثير من الخوف، أدركت فجأة أننى أقف بجانب «غريب» سلمته جسدى ونفسى، شخص لا أعرف عنه ما يكفى ليجعلنى أتزوجه ولكنى فعلت، وكانت تلك الأفكار كفيلة بأن تزيد من رهبتى وجزعى و شعرت بالرغبة فى الركوض لأهرب من المكان والحدث وكأن العدو سيمحو كل ماحدث و كأن شيئاً لم يكن. هرولت داخل عقلى بأفكارى وتجمّدت بجسدى فى موقعى واستسلمت.

أمر الحاجب بإدخال الحقائب حتى غرفة النوم ودخل بعده و الحماس يملأه و يفيض، توجه مباشرة إلى الحمام الخاص بغرفة نومنا التى لم أتعرف عليها بعد، قائلا وظهره لى: «البيت

بيتـك، استكشـفيه كـما تشـائين فهـو فى النهايـة سـجنك الأبـدى»
وانفجـر ضاحـكا عـلى دعابتـه السـخيفة تلـك. أمـا أنـا فلـم أعلـق
أخـذت أتجـول فى الشـقة متأملـة إياهـا، فالحـق يقـال، لقـد كانـت
عـلى أعـلى مسـتوى رغـم أننـى لم أشـارك برأيـى فى أى مـن الأشـياء
الموجـودة فيهـا إلا أن الـذوق الأنثـوى كان ظاهـراً بشـكل لايقبـل
الشـك، ورغـم هـذا لم أسـأل.

وقفـت عـلى عتبـة الغرفـة التـى تركتهـا للنهايـة، لم أتجـرأ عـلى
دخولهـا لا أعلـم لمـاذا ولا أسـتطيع تفسـير الأمـر إلى اليـوم، إلا
أن وابـلاً مـن الآلام قـد اجتاحنـى فجـأة وارتجفـت خوفـا مـن
أمـر لا أعرفـه، فتراجعـت خطوتـين وجلسـت عـلى المقعـد الوثـير
الـذى وضـع مـع منضـدة صغـيرة فى لمسـة فنيـة فى مقابلـة الغرفـة،
ووجدتنـى ألهـث فى فـزع ولا أعلـم كـم مـر مـن الوقـت وأنـا عـلى
هـذه الحـال لأننـى لم أسـمع البـاب وهـو يغلقـه خلفـه ولا وقـع
أقدامـه وهـو يقـترب منـى ولا صوتـه وهـو يتحـدث إلى ثـم ارتفاعـه
حتـى أفيـق مـن حالـة الفـزع التـى انتابتنـى، وإذا بـى أسـتفيق وهـو
ممسـك بكتفـى ويهزنـى بشـدة وهـو يـصرخ : «مالـك ؟! فوقـى!»

مـرت هـذه الحادثـة العابـرة بسـلام، وبـدأت الحيـاة تسـير عـلى
وتـيرة عاديـة بـل أقـل مـن العاديـة .كانـت حيـاة صامتـة ومملـة،
ولكننـى لم أيـأس، حاولـت أن أضفـى عليهـا بعـض البهجـة
والتجديـد ولكـن دون جـدوى، بـل انقلـب الأمـر عـلىّ فى النهايـة

وتحولـت إلى المذنـب الـذى قـام بهـدم المعبـد. وأيقنـت أننـى فى غربـة وإن لم أتـرك بـلادى، لقـد ذرعـت نفسـى فى أرض ليسـت بـأرضى، أرض بـور لا عـن حياة جديـدة تتفتق ولا تـترك سـاكنيها أحيـاء.

***

رشـحنى الدكتـور «ضيـف» ،أحـد أسـاتذتى؛ الـذي كنـت أتـدرب لديـه عقـب كل عـام دراسـى طـوال سـنوات الدراسـة الجامعيـة، للعمـل فى شركـة السياحة خاصتـه كمدربـة للخريجين الجـدد والمسـؤول المبـاشر عـن الأفـواج المهمـة، وكان العمـل مناسـبا جـدا للحيـاة الجديـدة، بالإضافـة إلى المرتـب المرتفـع والتعامـل مـع الأجانـب كمضيفـة خاصـة لهـم، سـواء الوافديـن إلى الإسـكندرية أو إلى منطقـة البحـر الأحمر حيـث تمتلك الشركـة عـددا لابـأس بـه مـن الفنـادق هنـاك، ولم يمانـع خالـد أبـدا، بـل كان مـن المتحمسـين للأمـر مـبررا: «هـذا يعطينـا المسـاحة كـى نشـتاق لبعضنـا البعـض ؛ وأكمـل مازحـا أو هكـذا ظننـت، وحتـى أرتـاح مـن ثرثرتـك وحكاياتـك وشـكواك المسـتمرة، فينفجـر هـو فى الضحـك و يخيـم عـلىّ الخـزى والخجـل.»

لأننـى أحببتـه، حاولـت أن أشركـه فى كل شـئ وشـعرت أن مـن حقـه على أن يعـرف كل شـئ، فأنتظره حين يعـود مـن عملـه المرمـوق متأخـرا، لأسـأله عـن يومـه وعـن حالـه، فيكتفـى بقولـه:»

كل شـئ عـلى مايـرام»، فأحـاول مداعبتـه وأقـوم بإعـداد عشـاءً خفيفـا كـما يحبـه.

أحـاول أن أتجنـب الحديـث عـن عملـه ظنـا منـى أنه ربما يـود أن يريـح أعصابـه مـن مشـاكله، فأنتقـل إلى الحديـث عنـى وعـن عملى و أشـكو لـه مـن ابنـة صاحـب الشركـة المتنمـرة التـى تخرجـت «طـازة» مـن الجامعـة وتأتـى يوميـا لتشاكسـنى وتحيـل يومـى جحيـما بـدلا مـن أن تتعلـم وتعمـل. و تـارة أروى لـه عـن الفـوج الجديـد وعـادات البلـد القادمـين منهـا، ثـم أشـكو لـه مـن زميـل لى وهلـم جـرا. لم أقصـد أن أثقـل كاهلـه بالمشـكلات ولم أسـع مـن خـلال حديثـى ؛ الـذى كان فى أغلـب الأوقـات مـن طـرف واحـد، أن أجـبره عـلى البحـث عـن حلـول، فى الواقـع لم أرد حلـولا، فقـط أردت أن أتحـدث معـه وأشركـه فى أمـرى، حاولـت أن أفتـح الأبـواب التـى يتفنـن فى إغلاقهـا بيننـا، حاولـت حتـى أمتهنـت.

جـاء عيـد ميـلاده الأول، وأخـذت أفكـر كثـيرا فى الشـئ الـذى يفضلـه ولأنـه لايخبرنـى عـن نفسـه شـيئا ولا أعلـم مـاذا يفضـل ومـاذا يكـره، قـررت أن أجـازف موقنـة بأنـه سيقدر الأمـر وسيسـعد بـه مهـما كان لأننـى تذكرتـه وأردت إسـعاده.

قـررت أن أحصـل عـلى إجـازة فى هـذا اليـوم، وبقيـت فى الفـراش متكاسـلة نوعًـا مـا لاحـظ إننـى لم أنهـض فى موعـدى المعتـاد، «اضطـر» أن يسـألنى :»ناويـة تتأخـرى النهـاردة والـلا

إيـه!» فأجبتـه مدعيـة التعـب «تعبانـة شـوية وحارتـاح النهـاردة، حاكلمهــم فى الشــغل أبلغهــم أنــى النهــاردة عارضــة»

فخـرج مـن الغرفـة، وكأنـه لم يسـمع كلمـة مما قلـت! بـدون كلمـة مـؤازرة أو قلـق!! لا سـلامتك أو مـاذا بـك، لاشـغف، لا خـوف، لا شـئ!!

كنت عـلى وشـك أن أعـدل عـن الأمـر برمته وأرتدى ملابسى وأذهـب إلى العمـل بـل وأتأخـر أيضـا عنـدا فيـه وإهمالا لـه جـراء بـروده وفتـوره، ولكننـى قـررت أن أكمـل مـا بدأتـه علـه يكـون قـادرا عـلى تغيـير مجـرى الأمـور التـى قاربـت عـلى قتـلى كمـداً.

عـاد إلى المنـزل متاخـرًا عـن موعـده بأربـع سـاعات كاملـة،لم أحاول أن أتصل به أو أتسـاءل عن سـبب تأخيره حتى لايرتاب أو يضيق ذرعاً بأسـئلتى ،كما أن تأخره أعطانى المسـاحة لأهتم بنفسـى و أسـترخى قليـلا حتـى أكـون فى اسـتقباله وأنـا عـلى أكمـل وجـه.

المفتـاح يـدور، البـاب يصـدر صريـره البغيـض وهـو ينفتـح، وقـع أقدامـه تقـترب، يدنـدن لأول مـرة منـذ نهـار العـودة المفاجـأة، يلقـى بمفاتيحـه عـلى المنضـدة الصغـيرة فى مدخـل المنـزل، ينظـر إلى نفسـه فى المـرآة المعلقـة عـلى الحائـط فوقهـا، يتلاعـب بخصـلات شـعره ويتأمـل نفسـه فى خيـلاء وزهـو، أضغـط عـلى مفتـاح النـور فيجدنـى أمامـه، بفسـتان ذهبـى أرتديـه لأول مـرة خصيصًـا مـن

أجلـه، أذهـب إليـه فأتعلـق برقبتـه برقـة، أحتضنـه وأنـا أهمـس فى أذنـه: «كل سـنة وأنـت طيـب ياحبيبى»، أخـرج لـه علبـة صغـيرة مزينـة بأناقـة وأطلـب منـه أن يفتحهـا متمنيـة أن تنـال إعجابـه. .

كل هـذا يتـم وهـو مذهـول، لاينطـق، وكأن صاعقـة أصابتـه فأفقدتـه النطـق والقـدرة عـلى الفهـم، لم يفتـح هديتـه بـل جلـس عـلى أول مقعـد وجـده، وهـو ينظـر إلى الهديـة القابضـة يـده عليهـا صامتـا وأنـا أراقبـه غـير متفهمـة لـردة فعلـه غـير المتوقعـة .حاولـت أن أتمالـك نفسـى ولا أفسـد الأمـر الـذى اجتهـدت كثـيرا لأحققـه. فتعمـدت أن أتجاهـل موقفـه الغريـب وتحولـه فجـأة مـن مدنـدن، مُترنـم، إلى مُطـرَب فى لوحـة صامتـة.

ذهبـت إلى المطبـخ لأحـضر الكعكـة التـى طلبتهـا خصيصـا مـن أجلـه وأنـا أتحـدث محاولـة مساعدته عـلى تخطـى هـذا الموقـف الغامـض:

«تأخـرت كثـيرا اليـوم، وبـدأت أتوتـر وأقلـق حتـى أننـى خشـيت أن أغـط فى النـوم مـن تعـب هـذا اليـوم، فكـرت فى أن أتصـل بـك ولكنـى لم أشـأ أن أفضـح الأمـر أو أضايقـك، فقـررت الصـبر ،أوفـف و مـا أدراك مـا الصـبر، وضحكـت مداعبـة لـه»

رفع رأسـه إليَّ، وكأن لحظات الصمت التى مرت قد أعانته على شـحن طاقته وشـحذ أسلحته التى قرر إشـهارها فى وجهى، فقال:

- «لم تتصلى لأنك لم تريدى مضايقتى!! ومن المفترض أن أصدق هذا الهراء.عموما أقام لى أصدقائى حفلة كبيرة بمناسبة هذا اليوم، أنا لا أحب أن أحتفل به بعيدا عن الناس، خصوصاً مع امرأة تثرثر بلاتوقف!!»

خارت قواى من هول الصدمة، ارتعشت يداى فأوقعت السكين ومع صوت ارتطامها بالأرض انحشرت أنفاسى فى صدرى، لم أستطع أن أستدير لأنظر إليه، لم أتمكن من رؤية ذلك الحقير، تمنيت أن أفقد الذاكرة، أن أعود جنينا فى رحم أمى، أن تنطفئ أنوار الدنيا ولا أرى شيئا بعد تلك اللحظة، أن أصم ولا أسمع صوته المستفز. وجدت نفسى لأول مرة أصرخ:

- لماذا تزوجتنى إذنّ، مادمت تفضل الصخب والأصدقاء، مادمت لا تقلق على حين أدعى التعب،مادمت لاتقدر شيئا مما أقوم به من أجلك بل وتتعامل على أساس أننى قد خيبت ظنك، مادمت لا تتحدث إليَّ عنك أو عن أى شئ، كيف لى أن أعرف من أنت وسط هذا الصمت و البرود حتى عندما يتذكر مزاجك أنك متزوجا فتقرر أن تستدعينى إلى الفراش كمن يستدعى ساقطته ليقضى وطره ثم يعطيها ظهره ويتنكر لها! لماذا سعيت خلفى، تلهث ككلب جائع، و تحاصرنى حتى أتزوجك!! لماذا أرهقت نفسك ثم تناسيت أن هناك مخلوقًا

تعيـش معـك تحـت سـقف بيـت واحـد، اخترتهـا أنـت بكامـل إرادتـك!!»

قـام مـن مقعـده دون أن ينطـق بكلمـة، توجـه إلى غرفـة النـوم وأغلـق خلفـه الباب.هكـذا بمنتهـى البسـاطة! اسـتدرت لأجـد الهديـة مكانـه عـلى المقعـد بحالتهـا دون مسـاس. وجدتها تشـبهنى، هديـة ملفوفـة للاقتنـاء ولكـن لـن يعلـم أبـدا مـا بداخلهـا.

داوم عـلى مطالبتـى بـأن أكف.أكـف عـن مـاذا، لم يتمكـن عقلى مـن الاسـتيعاب.أكف عـن كونـى أنـا، أكـف عـما أفعلـه، أتخـلى عنـى؟ مـاذا يتبقـى لى إن انصعـت للأمـر، مـاذا أكـون بعـد أن أتـرك كينونتـى وعيوبـى التـى تميزنـى، مـاذا أكـون بعـد أن أذوب و أتبخر وأحـال إلى مجـرد تـراب كان و نثرتـه الريـح.

يـوم جديـد قـد أقبـل، ولم أعـد قـادرة عـلى تعريـف مـا أشـعر بـه، فبعـد قضـاء ليلتـى أنتحـب عـلى الأريكـة وحـدى والسـلطان المتبجـح المتغطـرس يغـط فى نـوم عميـق مسـتمتعا بـدفء الفـراش وحـده بعدمـا تخلـص مـن الآفـة المزعجـة .شـعرت بـه عندمـا اسـتيقظ قبـل موعـده. قمـت بعدهـا مـن مكانـى و قـررت أن أذهـب للعمـل بـدورى ولا أستسـلم للوعتـى واكتئابـى.

قضيـت يومـى أفكـر فى الخطـوة القادمـة فأنـا بالتأكيد لـن أتمكن مـن الاسـتمرار هكـذا، وبالرغـم مـن أننـى قـد كنـت وضعـت

انفصالى كخطة بديلة عند فشل الزواج منذ البداية جبنت من أن أتخذ إجراءات تلك الخطوة، وشعرت بالهلع بمجرد أن واتتنى الفكرة وتعجبت من نفسى، هل سلوت عذابه وإهاناته لى! هل اعتدت اهماله وتجاهله فصارا «أفيونتى» التى أدمنتها! وأدركت أننى تحولت إلى مريضة يجب أن تبحث عن علاج لا عن خلاص.

حاولت ألا يبدو على أى شئ، ورغم أننى بذلت مجهودا خرافيا لتحقيق مرادى، إلا أن مديرى المخضرم شعر بأن هناك شيئا ما غير طبيعى وسألنى مرارا و تكرارا خلال اليوم عما إذا كنت أشكو من ألم ما،وعندما أجبته بالنفى المؤكد، قال إذن هناك مشكلة كبيرة تؤرقنى و أحاول ألا أظهر الأمر ولكن عينى تفضحنى وعرض على أن أترك العمل باكرا كى أستريح ،فأكدت له حانقة أننى بخير ولا أريد أن أستريح من شئ غير موجود و انصرفت فى حركة تفتقر اللياقة و الذوق على غير عادتى فأكدت له بذلك ظنونه.

عاثت الوساوس فى رأسى فسادا، وتواترت الأفكار السوداء واحترت فى أمرى، فأنا لا أريد أن أعود فى ذيل الليل لأسلم نفسى و روحى إلى سجانى و لا أجد الجرأة لأطلب الانفصال، بل أنا لا أريده.

وفى النهاية قررت المرور على صالون التجميل الذى تتعامل معه ابنة مديرى الشريرة، وقررت ألا أخرج إلا وأنا امرأة أخرى وقد كان.

عدت إلى المنزل بعد منتصف الليل، متباطئة، متمايلة ووقفت أمام مرآته الصديقة أتأمل مظهرى الجديد الجذاب والمثير متخيلة صورته المُحتجزة فيها ووقفت أمامها متحدية. قصصت شعرى وصبغته باللون الأحمر القرمزى وارتديت فستانا أسودا ينتهى عند ركبتى مع حذاء أحمر بكعب عال وشرائط تمتد للأعلى وتنتهى أسفل ركبتىَّ ورائحة العطر الجديد تفوح منى.

كان جالسا أمام التلفاز ولم ينظر خلفه حتى مررت من أمامه متجهة إلى المطبخ لأحضر كوبا من الماء البارد، لم أعيره أى اهتمام ولكنى رأيته فى زجاج النافذة مذهولا ومتحجرا ينظر إلى المرأة الغريبة التى اقتحمت شقته بعد منتصف الليل دون أن تلقى حتى كلمة سلام.

أنهيت كوب الماء على مهل، ومررت بجانبه فى تؤدة؛ ولكن هذه المرة أقرب من المرور السابق، متجهة إلى غرفة النوم وقررت أن أقضى الليلة فيها، فأنا الملكة وليس هو. أغلقت الباب خلفى وتعمدت أن أدير المفتاح بصوت مسموع لأثير غضبه وأكسر بعضا من غطرسته.

شعرت به بعد أن خلدت إلى الفراش يحاول إدارة المقبض كأنه لم يصدق أذنه عندما سمع المفتاح وهو يعلن طرده الليلة من عرينه،ثم ركل الباب بقدمه وأبتعد وقع أقدامه.

مرت الأيام التالية على نفس الوتيرة، يستيقظ باكرا ويخرج قبل أن أصحو فيشعر بخسارته للجولة الأخيرة، وأعود أنا قبل أن يعود، ليجد باب الغرفة مغلقا وأشياءه في الخارج ملقاة على الأريكة التي تجرأ وجعلني أقضي الليلة التي أردت إسعاده فيها عليها .حتى جاء اليوم الذي كلفني فيه المدير باصطحاب فوج استرالي إلى الجونة،فعدت باكرا لأحزم حقيبتي،فوجدته في سريرنا متعرقا، فاقتربت منه بحذر لأجده يهذي وحرارته مرتفعة، فزعت وركضت أطلب صديقه «أشرف» الطبيب الذي يعمل بكبرى المستشفيات الخاصة إلى جانب عيادته الخاصة، توسلت إليه أن يسرع ؛ لأن خالد في حالة خطرة فرد على بفتور: «ححاول، بس أنا دلوقتي معايا حالة ما أظنش حالة خالد حاتكون أخطر منها. أعملي له كمادات باردة لحد ما أعرف آجي» .

تعجبت كثيرا من رد صديقه الذي قال لي؛ قبل أن يفقد النطق، أنه أقرب الناس إليه و أكثر الأصدقاء معزة .لم أعرف ماذا أفعل، فقررت أن أطيع الأمر مؤقتا وسارعت بعمل

الكمادات الباردة له ولحسن الحظ أننى أهوى شرب الماء المثلج لذلك أواظب على توفيره .

جلست بجواره لأكثر من ساعة وأنا تائهة، حائرة، أجهل ماذا أفعل وتأملت الأحوال، لقد كان حقيرا معى و رغم ذلك لم أكرهه،أردت أن أؤدبه ليعود إلى رشده الذى أشك إن كان يمتلكه، وأعز أصدقائه لم يعبأ به، ترى ماذا فعل؟ ما هى الأشياء التى أجهلها والتى تجعل أعز أصدقائه يتخلى عنه فى مرضه! وبينما أنا مستغرقة فى أفكارى، رن جرس الجوال وإذا به المدير، يا إلهى لقد نسيت!، فأجبته فى ارتباك و شرحت له الموقف فى خجل، ولكنه تفهم الأمر وأوصانى بأن أظل بجواره حتى يشفى ثم أعود إلى العمل وقتما أشاء. ياله من عالم عجيب هذا الذى يجمع بين رجلين كخالد والدكتور ضيف.

أغلقت الهاتف لأجد جرس الباب يعلن عن قدوم شخص، هرولت ناحيته والأمل يغمرنى بأن يكون «أشرف» هو الزائر ولكنى وجدت رجلا لا أعرفه، فعرّفنى بنفسه : «مساء الخير، أنا الدكتور «علاء»، أرسلنى الدكتور أشرف من أجل الباشمهندس خالد» .فدعوته للدخول و ارتبت عندما وجدته صغيرا فى السن وسألته منذ متى يعمل فى المستشفى، فقال أنه قد عُين حديثا حيث أنه أنهى فترة التدريب أو ما تسمى «بالامتياز» مؤخرا.

شعرت وكأن عنكبوتا قد أحكم شباكه على حلقى فلم أتمكن من التنفس أو النطق، ولكنى حاولت استجماع نفسى وتهدأتها، ففى نهاية الأمر لم يتخل صديقه عنه تماما.

وسألته على استحياء خوفا من أن أجرح مشاعره، إن كان لديه الخبرة الكافية للتعامل مع حالة زوجى وكان قد بدأ بالفعل فى فحص خالد الذى كان فى عالم آخر، فابتسم مطمئنا و قال: »لاتقلقى، فحالته ليست حالة نادرة أو عويصة، باللإضافة إلى أننى قد تدربت على يد أساتذة مخضرمين من أصدقاء أبى فى كبرى المستشفيات،»يعنى أنا مش أبيض، ما تقلقيش» ثم ابتسم و أكمل فحصه.

أنهى كشفه الذى كان دقيقا، وحقنه بدواء ليسرع من خفض حرارته كما فسر لى، ثم أعطانى «روشتة العلاج»،وعندما سألته عن ثمن الكشف، رد عليَّ بابتسامته الأخّاذة بأن الحساب مع الدكتور أشرف، ففهمت أن أشرف يجاملنا بإرسال»علاء»، فشكرته و اصطحبته إلى الباب وأنا أكرر شكرى و امتنانى.

أستدعيت «البواب» و أعطيته الروشتة وأوصيته بأن يسرع لأن خالد بيه مريض جدا.

أستعاد خالد بعضا من وعيه بعد رحيل الطبيب بحوالى ساعتين، نظر إليَّ وأنا بجانبه، ثم رأيت على وجهه

شبح ابتسامة صغيره راح بعدها فى النوم مرة أخرى.

ومر الأسبوع الأول فى صمت، أعد له الطعام وأواظب على مواعيد الدواء والكمادات الباردة، حتى تحسنت حالته واستطاع أن يترك الفراش ويتحرك فى البيت.

لم نتحدث عما حدث فى الأيام المنقضية،وكأن شيئا لم يكن،كأنه لم يهنى،و لم يغتاظ منى و من قوتى ومن تجاهلى له، وعدت أسيرة له مرة أخرى، لم أسمع منه كلمة اعتذار أو شكر، فقط يطلب ويُجاب، عدت خاضعة لساديته التى تفاقمت بعد مرضه وكأن وعكته سحرا أعادنى لقبضته من جديد، كل ذلك فى بحر لجىٍّ من الصمت المميت.

على غير العادة، وجدت أمى فى أحد الأيام تتصل بى على هاتف المنزل الذى نادرا ما كنا نستخدمه، ووجدتها متوترة وتحدثنى بصوت خنقه البكاء، كانت تحاول أن تنبأنى بخبر ما، حاولتْ ولكنها لم تستطع أن تنطقها، حتى فهمت وحدى، وقلت لها: « هل مات أخيراً؟»، فسكتت ثم أجابتنى: «النهاردة المغرب»، ثم أغلقت الخط.

لقد مات أبى، مات سبب مرضى الأول وسجّانها الأوحد الذى قادها إليه قلبها الضرير، وتعجبت لماذا هى حزينة لهذه الدرجة، وربما لم تكن كذلك ولكنه أثر الصدمة وعدم

قدرة عقلها على استيعاب انتهاء الأمر وأن ساعة الخلاص قد أزفت، فإذا قضيت عمرك سجيناً فى غرفة تقبع فى أرضيتها كالفأر، وفجأة تلتفت لتجد أن الباب قد فُتِح على مصراعيه، ستهاب المرورعبره، فالعمر قد مر وخوفك من الذى حجُب عنك وحُجِبت عنه يفوق رغبتك فى الانطلاق. هذا ما حدث للمسكينة أمى.

لم أحزن، لم أبك، ولم أتأثر . ذهبنا إلي المنزل الذى منذ أن خرجت منه لم تطأه قدماى، ولم أكن أتحدث إلى أمى لأطمئن عليها بل اكتفيت بإرسال رسائل نصية بين الفينة والأخرى، لهذا لم يعلم أحد بحقيقة الحياة التى أعيشها مع خالد.

وجدتها جامدة، متحجرة كتمثال من الشمع، فمع بياض بشرتها المشع والسواد الذى غلفت به جسدها، ومع ثباتها، تحولت إلى لوحة مرسومة، أبدع من صورها حتى عجزت عن إنزال بصرى عنها وعكفت أتأمل تفاصيلها دون التفات لما يحدث حولنا. أما هى، فلم ترفع عينيها، لم تتوجه إليَّ حتى بنظرة، لقد مات الكثير، ومُحى الخط الواصل بيننا، لقد بُتِر الجذر الذى أخرجنى منها إلى تلك الحياة، ولكن الذنب الذى حملتها إياه هو القاتل الحقيقى لكل ما كان يوما سببا فى اتحادنا، سلبيتها طوال حياتى معهم، التى جعلت من ظلمهم لى أمرا بديهيا بل و عادلا فى أحيان كثيرة، تارة يأتى من أبى و تارة من

خليفته فى الأرض المُدعى أخى الذى كان قد تزوج هو الآخر بامرأة لم أرها إلا فى يوم زفافهما، ولكنى أتذكر إحساس الشفقة الذى أغرقنى بسبب الابتلاء الذى كانت مقبلة عليه، ذكرتنى بأمى و بى، ثلاثتنا سار إلى البئر وألقينا بأنفسنا فيها بإرادتنا .

صافح خالد بحرارة مصطنعة واحتضنه خالد مواسياً فى اصطناع فج فشعرت بالإعياء من أثر هذا اللقاء المقيت، تلاقت أعيننا دون أن تمتد الأيادى للمصافحة أو تنفتح الأحضان، لقد وئِدت المشاعر منذ زمن ولا يوجد شيئا يمكنه أن يجمعنا حتى الموت بهيبته والرعب الذى يخلفه فى النفوس لم يقو على انتزاعنا من البرود الذى لفت أنظار كل المعزين حتى سمعتهم يتلامزون و يهمهمون و يمصمصون الشفاه على حال الأسرة العجيب.

جلست بجوارها، وتجمدت مثلها فصارالتمثال تمثالين، حتى انصرف الجميع ولم يبق سوى العائلة الميتة مسبقا والتى لن يحدث موتا حقيقيا فيها فارقا.

و نطقت أمى أخيرا، دون حراك:

«لم تفكرى فى الاتصال بى أو زيارتى، فاعتبرتك لم تأتِ إلى الحياة قط، ولكننى أدين لك باعتذار، فأنا السبب ولكننى مرضت به منذ زمن وخضعت لشذوذه الإنسانى وعدوانيته حتى استضعفنى وصنع منى مسخا برتبة أم.»

لم أجادلها، لم أفعل أى شئ فى الحقيقة، وقفت وانصرفت فتبعنى خالد الذى كان قد أصابه الملل بعد بضع دقائق من وصولنا ولكن حفاظا على مظهره العام الذى كان يعنى له كل شئ، ظل صابرا مؤديا دور "صاحب الواجب" بامتياز،فلم يشكل لى فى ذلك اليوم مشكلة، فقد كنت فى غنى عن أى إضافة إلى العذاب الذى كنت غارقة فيه، فالعودة إلى المنزل الذى طالما أهانك، وركلك فيه من قالوا لك أنه أبيك، من داوم على صفعك أمام الأغراب،من أخذ منك حق حرية الاختيار، من عامل أمك المزعومة بحقارة،وامتهان، من سلم الراية بعده لإبليس مثله، أحضره إلى الدنيا ليبتلى به امرأة أخرى وأبناءً آخرين لن يفهموا يوما الذنب الذى اقترفوه ليهانوا و يعاملوا كماشية فى القطيع، من كان سببا فى اختيار أحمق ارتكبته فى حق نفسى و بدلا من أن أنجو وأنأى بها عن هذه الحياة برمتها، ألقيت بها فى أحضان مريض آخر ولكن من نوع جديد.

ولكنى لست مثل أمى،لذلك ربما أفلح، ربما فى حريتى أطمح ولأجلها أكافح.

***

العلاقات الشائكة، والدروب التى نولد لنجد أنفسنا فى منتصفها، إن حاولنا الهروب قالوا «عصاه وأذنبوا» وإن ارتضيناها سبيلا مقدرا قالوا «خانعون يائسون».

في خضمها لا نستطيع كره الرفقاء، ولا نستطيع تحملهم طويلا أيضا. هم النعيم والجحيم معا. هم عقابنا على الصمت والبوح، « هم من يضعوننا فى حيرة من أمرنا، فلا نكون أبداً «حقيقتنا» ونحن معهم أو مع غيرهم، فتزداد غربتنا وغرابتنا.

وتلك كانت أول علاقاتى الشائكة التى علمتنى ألا أبوح، ولا أعلم لماذا تذكرت وقتها أيمن، فقد قال لى يوما ؛ وأنا أشكو إليه من رد فعل أمى عندما جئت أشكوها أبى:

«بالشكوى يسوء حالنا و لن نرضى، فقد تعلمت الدرس الصعب، تعلمت ألا أبوح حتى بحسن نية، تعلمت أن البوح سرا للحبيب الخالق هو التخلص الحقيقى من الهموم وما عاداه مجرد وهم.

تعلمت أن كثرة الشكوى تجلب المزيد من البؤس والمتاعب وتضع على أعيننا غمامة فلا نرى كم نحن أغنياء وكم نملك من كنوز يشتاق إلى قليل منها غيرنا و أن استمرارنا على تلك الحالة السلبية يسلبنا القدرة على الاستمتاع بما لدينا عقابا لنا على جزعنا وقلة شكرنا، وهذا أضعف عقاب، فربما إن تمادينا فجعنا و فقدنا ثروتنا الحقيقية لأننا أهملناها و حينها فقط ندرك.

تعلمت أن الله خلقنا «أحرارا» رغم أنف كل شخص يحاول أن يفرض وصايته على غيره. هذه حياتك وطريقك وهذا اختبارك

أنت .تعلمت أن مغزى الحياة ليس فى الميلاد والذرية والشهرة و النفوذ، المغزى أعمق يجمع بين البساطة و التعقيد، وإلا لما كان المال والبنون «زينة».ومن وجد «السر» فقد وجد السلام.»

لم أفهم وقتها مغزى حديثه، ولا الرسائل التى كان يحاول بثها، ولم أفهم قبل الآن أنه لم يكن مجرد تعبير عن نظرياته فى الحياة، بل كانت محاولة ليعلمنى درساً فى عدم الاستسلام وتغيير الطريقة التى اتبعها لأنها لن تجدى نفعاً .لا أعلم ولا أفهم لماذا تذكرت جملته الآن، ربما كان هو أيضا إحدى العلاقات الشائكة فى حياتى التى لم أنجح يوما فى تحديد هويتها.

أعادتنى كلمات خالد من رحلتى وسط غابات الأفكار والذكريات، رأيته يوجه كلاما ما إليَّ و لكنى لم أستطع تمييزه فى البداية، كأننى كنت فى حالة نوم عميق وأيقظنى فى منتصف الحلم، حتى أستوعبت أننا وصلنا ويريدنى أن أترجل من السيارة.

يعلم جيدا أننى لم أكن لأحزن على أبى، ولكنه رغم ذلك احترم حالة الصمت التى أصبت بها ؛ أو ربما سعد بها، ولم يسأل أو يحاول مواساتى، فقد ارتدى عباءة الصمت التى يعشقها و ذهب للنوم مباشرة.

قضيت ليلتى فى الشرفة وسط الأفكار والتساؤلات دون جدوى، حتى أعلن الصباح عن ميلاده الوشيك بآذان الفجر

ورغـم ذلـك لم أتـرك مقعـدى، فقـط حاولـت استنشـاق الهـواء البـارد وحبسـته فى أعماقـى ثـم أغمضـت عينـى وغفـوت.

نادتنى شجرة السنديان بصوت مبحوح، مشروخ من طول البكاء والنحيب، تستنجد بى و تستجدينى لأغيثها، رأيتها تهتز بعنف وكأن هناك زلزالاً يرج الأرض حتى بدت وكأنها على وشك أن تنشطر، حاولت أن أستجيب لها ولكنى لم أستطع الحراك ونظرت لأسفل فوجدت قدمىَّ مكبلتين بسلاسل حديدية سميكة مباشرة إلى الأرض، ذعرت، صرخت وأخذت أتلفت حولى علّى أجد أحدا ينقذنى، حتى ظهر لى خيال من بعيد، خيط أسود يتراقص فى الظلام وانتظرت حتى يقترب لأتبين ملامحه.

ها هو وجهه أراه بوضوح، عيناه شامتتان وابتسامته صفراء، وقف ليتشفى منى وانفجر فى حمى ضحك لا ينقطع. لم أفهم، ودأبت أسأله لماذا؟ حتى انشطرت شجرتى المسكينة بالفعل ورأيت أمى تخرج من رحمها، لاتكاد تقبل خطوة حتى تتعثر، نحيفة للغاية، جاف عودها وعظام وجهها بارزة كالشوك، قنطت من الحراك وحاولت مناداتها لتلحظنى وتنظر إلىَّ و لكنها لم تسمعنى كأنها صُمّت وعُميت، وإذا بضوء الصباح يوقظنى وينقذنى من أسرى ومن فزعى.

***

شعرت بالإرهاق والإعياء، ولم أتمكن من إتمام اليوم كما كان مُخططا، فذهبت إلى المنزل و أنا أكاد أفقد وعيى وبمجرد دخولى المنزل ارتميت على السرير بملابس الخروج ونظرت إلى السقف فوجدته يدور ويدور حتى ذهبت فى العالم المظلم المريح.

– مبروك يامدام. كلمات خرجت من فم الطبيب جعلتنى أنظر خلفى بتلقائية أخجلتنى، هل كان يتحدث إليَّ؟ مبروك؟ ماذا تقصد؟

– «حضرتك حامل، ألف مبروك» ويستمر فى كتابة بعض الطلاسم فى الورقة التى أمامه و أنا لا أزال واقفة، مشدوهة، لا أعلم ماذا أفعل وكأنه انتبه فجأة أننى لم أجلس بعد، فدعانى للجلوس بهدوئه وابتسامته العريضة، مشاورا بيده إلى إحدى المقعدين أمام مكتبه، فجلست طائعة ثم – -- سألته فجأة: «هل أنت متأكد؟»

– أجابنى وهو يقهقه هذه المرة: «إلى الآن نعم ولنتيقن سنقوم بعمل بعض التحاليل وبعدها سأبصم لك بالعشرين أننى متأكد»

– ارتعدت، نعم ارتعدت وانتابتنى رغبة شديدة فى البكاء، ولكننى تمالكت أعصابى وأخذت منه الورقة وأبكرت صباحا لأجرى التحاليل المطلوبة حتى لا أموت من طول الانتظار،

وقطعت المنزل ذهاباً ومجيئا طوال اليوم عدة مرات كالمجنونة ورغم نظرات خالد الفاحصة و المتسائلة، لم أعبأ ولم أتمكن من استعادة رباطة جأشى أو التحكم فى أعصابى التى كانت على وشك الانفجار فى وجهه إذا ما قرر أن يفتح فمه معى بأى سؤال. ولكنه لم يتساءل، تجاهل الأمر كالعادة وخرج.

لم أتحمل البقاء فى المنزل بين جدرانه التى كانت تقترب منى رويدا كلما مر الوقت، رأيتها تتمايل وتهددنى بامتصاص الهواء من محيطى، فارتديت ملابسى و خرجت من المنزل مسرعة كأننى أهرب من مطاردة عقارب الساعة لى. وأخذت أتجول بالسيارة فى الشوارع لا أدرى أين أذهب و كيف أسير، حتى جاء ميعاد استلام نتيجة التحاليل.

ضربات قلبى تتصارع مع خطوات قدمى المتثاقلة، تحاول سحب الطاقة منها حتى تتمكن من العدو وكأن جسدى قد سُلِب كل الطاقة التى أصابته كالحمى منذ قليل ولم أعد أملك إلا القليل لأحرك قدمى فوق الأرض، رأسى يؤلمنى وعينى لا تتحمل ضوء المكان، أتجه إلى الاستقبال لاستلام النتائج، تناولها لى فتاة بشوشة بعينين دافئتين، أفكر فى أن أسألها عن النتائج ولكنى أتراجع، أتوجه إلى السيارة مسرعة وقد عادت الطاقة النارية إلى عضلات جسدى، أذهب إلى الطبيب، أنتظر قليلا، أدخل إليه، أناوله الظرف المغلق، يفتحه، يقرأ بهدوء واهتمام ثم

تنفرج أساريره ويرفع رأسه لى و يقول: »نبصم بقى بالعشرين«

ثم تظلم الدنيا وأفقد الوعى أخيرا.

بعد أن استفقت عدت إلى المنزل منكسة الرأس وكأن العار قد وصمنى، ورغم محاولات الطبيب المستميتة بأن يأخذ رقم زوجى لتقوم الممرضة بالاتصال به ليأتى ويعيدنى للمنزل حتى لايحدث لى مكروها فى الطريق ولكننى رفضت بإصرار حتى ظن الطبيب أننا منفصلان أو بيننا خلاف.

دخلت البيت وكان خالد فى المنزل، وهذا على غير عادته، وأعتقد أن مظهرى كان مرعبا لأنه قام مسرعا تجاهى وفى عينيه نظرة غريبة أراها لأول مرة منذ زواجنا، نظرة خوف، نظرة قلق، ربما نظرة اهتمام، ولن أنكر أن تلك النظرة هدأت من روعى قليلا، وساعدتنى على تمالك نفسى. إنهال على بالأسئلة:

- «ماذا بك؟ أين كنت؟ لماذا لا تذهبين إلى العمل؟ وختمها بالصدمة الكبرى التى جعلتنى أتمنى الموت فى لحظتها، وقال: «هل تخونيننى؟!»

شعرت بخيوط ساخنة تتسابق على وجهى، تحرق جلدى وتحفر خطاها على وجنتىَّ بقسوة. خفتت الرؤية والخدر يسرى مع كل خيط ساخن فى جسدى، فقدت الشعور بأطرافى و فقدت القدرة على السمع، وكل ما شغل تفكيرى

بعـد أن تجـرأ ونطـق بهـا، هـلى سـيصدق أن مـا فى رحمـى منـه هـو أم سـيرفض الاعـتراف بـه بحجـة أنـه يشـك فيَّ؟! يـا إلهـى ماهـذا الكابـوس الـذى أعيـش فيـه، لمـاذا أشـعر بأننـى فى فيلـم وأننـى سـأصحو منـه بعـد أن يغـزو السـواد الشاشـة معلنـا النهايـة.

لم أنطـق، فقـط أعطيتـه الظـرف واتجهـت إلى غرفتـى، أخـذت ألملـم أغـراضى وأنـا أفكـر، تـرى مـن سيفتح لى بابـه بعـد القطيعـة، ووجـدت نفسـى أكتـب الرقـم الخـاص بأيمـن متمنيـة ألا يكـون قـد تغـير، رن الهاتـف وسـمعت صوتـه وهـو ينـادى عـليَّ: «آلـو، آلـو، عاليـا؟!» فانفجـرت فى البـكاء و خرجـت الكلـمات مـن فمـى متهدجـة، متبعثـرة لاتعنـى الكثـير ولكنهـا كانـت كفيلـة بإخبـاره بوضـع كارثـى.

طلـب منـى أن أهـدأ وقـال أنـه سيرسـل إليَّ سـيارة تقلنـى إلى حيـث يوجـد، لم أركـز فيـما قالـه، لأننـى سـمعت طرقـات خالـد عـلى البـاب وهـو يأمرنـى بفتـح البـاب:

- «المدير اتصـل، وعرفـت منه إن بقالـك يومين مـش بتروحى الشغل، بتسرحى بيا يا عاليا! بتخونينى!»

فأغلقـت الهاتـف وفتحـت لـه، وعندمـا رأى الحقائـب أخـذ يسـب ويلعـن، لم أرد عـلى كلمـة ممـا قـال و بعـد أن سـكت، اسـتدرت إليـه و قلـت:

- «بما أنك تشك بى فالبتأكيد تشك بأن الجنين ليس من صلبك لذلك سأرفع عنك وزر التهمة الجديدة التى ستوجهها إليَّ وسأرحل ولن أدافع عن نفسى أمام مخبول مثلك.»

تفاجأ بكلماتى وذهبت مسرعة تجاه الباب وأغلقته خلفى وضربات قلبى تتضارب فى خوف من رد فعله، ولكنه لم يحرك ساكناّ!! لم يفعل أى شئ!!.

وقفت فى مدخل العمارة وأنا أرتجف، أنتظر وصول السيارة، وبالفعل لم أقف طويلا نزل منها سائق كبير السن وأخذ منى الحقائب ووضعها فى شنطة السيارة بعد أن فتح لى الباب الخلفى لأجلس، وانطلق دون أن ينبس ببنت شفة، وصلنا إلى مبنى غاية فى الأناقة، وأوصلنى رجل الأمن الضخم إلى المصعد، وقال لعامل المصعد :»إلى أيمن باشا» فضغط على رقم سبعة، ثم خرجت من المصعد لأجد أيمن فى استقبالى أمامه، مد إلى يده، فأسلمت له يدى و ضمها بكفيه ثم قادنى إلى الداخل.

مكتب فخم، والكل يحيه باحترام وإجلال، يقفون له حتى يمر وعلى وجههم ابتسامات الحب، ويرد عليهم بابتسامات حميمية يملأها الود.

أيمن هو «الرجل الأول» فى هذا الصرح، الذى ورثه عن أبيه، مجموعة شركات متخصصة فى الدعايا والإعلان .

تذكـرت الآن عندمـا كنـا نتسـامر مـع باقـى «الشـلة»، عـن خططنـا للمسـتقبل، قـال وقتهـا أيمـن شـيئا مـا عـن شركات أبيـه ولكننـى لم أنصـت كالعـادة، سـمعت ولكننـى لم أعِ.

رأيتـه اليـوم وكأننـى أراه للمـرة الأولى، أتفـرس فى ملامحـه، أتعـرف مـن جديـد عـلى تفاصيـل وجهـه بنظراتـه وابتسـامته الهادئة المحبـة، وشـعرت بأننـى قبـل اليـوم لم أكـن أرى، لم أكـن أشـعر، لم أكـن أتنفـس، بوجهـه نـور يشـع فيضـئ ظـلام روحـى المخيـف، فى عينيـه سـكر رغـم آثـار السـهد، كل لفتـة يقـوم بهـا تغسـل بعضـاً مـن المـرارة القابعـة فى جـوفى بـلا حـراك .

اسـتأذننى بأنـه سـيتغيب قليـلا، وبمجـرد أن أنتهـى مـن عصير البرتقـال ؛ الـذى قـام بطلبـه لى دون أن يسـألنى وكأنـه يبعـث إليَّ برسـالة مفادهـا: »أنـه مـازال يتذكـر مـا أحـب»، سـنرحل سـويا فأختـه فى انتظارنـا، ولم يـزد عـلى قولـه كلمـة أخـرى.

فـرغ مـن الأمـر سريعـا، نزلنـا سـويا وتوجهنـا إلى السيارة التـى أقلتنـى منـذ قليـل وابتسـم لـه السـائق، ثـم نظـر إليـه أيمـن ومـال برأسـه قليـلا للأمـام مـع نصـف بسـمة وكأنهـا إشـارة اتفقـا عليهـا مسـبقا، فانطلـق السـائق وتوقفنـا أمـام فيـلا ضخمـة، نـزل أيمـن ثـم فتـح لى البـاب وأشـار للسـائق بـأن يحضر الحقائـب و يعطيهـا للحـارس الـذى حملهـا عنـه سريعـا مراعـاة لسـنه ولحـق بنـا.

كانت أخته فى انتظارنا وقابلتنى بالترحاب و قالت: «أهلا بك عاليا، أول مرة نلتقى رغم أنى أعرف عنك الكثير»، نظر لها أخيها معنفا، فضحكت و أكملت: «أيمن يحكى لى عن كل صديقاته ويبدو أنك المفضلة لديه» ؛ وقبل أن يرد أيمن توجهت ناحية السلم الضخم الذى يؤدى إلى الطابق العلوى واستطردت دون أن تنظر إلينا، «حالا وسيكون العشاء جاهزا، وبعد قليل ستجدين غرفتك فى أتم الاستعداد لاستقبالك، فقد أمر أيمن الخدم بإعدادها منذ يومين والآن عرفت السبب»، فرمقته بنظره أنثوية بها مزيج من المداعبة والدهاء، واختفت لنهاية ذلك اليوم و كأنها تبخرت.»

– قلت له:»هل سأبيت هنا؟! هذا لايصح.

– قال مطمئنا:

«انظرى حولك، البيت يعج بالخدم، وأختى أيضا هنا مع أبنائها الثلاثة و لكنهم ناموا كالفراخ منذ ساعات ولاشئ يخيف فى هذا الأمر، المخيف حقا أريد أن أعرفه منك».

وظننت أننى نسيت وكلماته الأخيرة هى التى أعادتنى لبداية أحداث هذا اليوم، فتنهدت و طأطأت رأسى فقال لى لنجلس فى الخارج، حتى يجهز العشاء، وفتح بابا أخذنا إلى حديقة غاية فى الجمال، أقرب إلى غابة منها إلى حديقة منزل،

تزينها أزهار الأقحوان الزهرية، والزنبق الأبيض، وعصافير الجنة البرتقالي منها والبنفسجى وبيت كبير لأنواع كثيرة من الطيور الملونة، وخيمة فى آخر الحديقة مصنوعة من خامات لا أعرفها ولكن ألوانها الزاهية الرقيقة كانت لافتة للنظر، ولكن ليس هذا فقط ما لفت نظرى، ففى منتصف الحديقة تقف شامخة محاطة بحلقات خاصة من الأزهار وكأنها الملكة المتوجة وتلك الأزهار وصيفاتها وحراسها، وجدتها فى انتظارى وكأنها هناك خصيصا من أجلى، إنها شجرة سنديان.

– لماذا السنديان؟

– لأنها تذكرنى بك.

– ولماذا تريد أن تتذكر صديقة أعطت ظهرها للجميع وأنت على رأسهم

– لأنها ليست بصديقة.

– إذن ماذا تكون؟

– امرأة جعلتنى درويشا.

– درويش؟ّ كيف؟

– خلا قلبى من حب البشر بعدها، وعندما بحثت عن الغذاء وجدت نفسى زاهدا فى كل النساء، ووجهت حبى

لكون يعج بروعة وجمال ويحوى جمالها بصور مختلفة، فعشقت النار و النور، وهمت حبا بالماء والثلج، وتواصلت مع الحيوان و الطير، وأحببت البشر جميعهم بلا استثناء.

شعرت بالحرارة تجتاح وجنتى والتى دون شك أحالت لونهما إلى الوردى، وأبعدت عينى ؛اللتين غاصتا فى سواد عينيه الآسر، فى ارتباك و سألته:

- عم تتحدث يا أيمن؟؟

- أتحدث عنك و لا غيرك أحد.

أدرك ارتباكى فدعانى للجلوس، وطلب منى أن أحكى له كل شئ ولأول مرة أشعر بأننى لست وحيدة وأننى فى وضع مريح، أعجبنى وتمنيت أن يتجمد الزمن عند هذا المشهد الدافئ، الساحر من كل حماقاتى.

رويت له كل شئ، أتأرجح بين الانفعال والسكينة وهو يتابعنى بعينيه، يهز رأسه من حين لآخر ويزم على شفتيه متأثرا أحيان أخرى وكأنه يريد أن يقول : «لقد قلت لك،لقد حذرتك» ولكنه أحكم لجام لسانه و لم يسمح له بالانطلاق حتى لايشعرنى بضآلتى و طيشى.

كان العشاء قد وضع ولكننا لم نلتفت له، وجاء الجزء الأخير من القصة وبالطبع نال الجنين قسطا لا بأس به منه.

حينها تبدلت ملامح وجهه واغرورقت عيناه بالدموع، لم أفهم ولكننى تابعت ثم توقفت عند مكالمتى الأخيرة له.

- لماذا إذن تنجبين منه إن كان يمثل لك صورة جديدة للقهر والازدراء، أنا لا أفهم.

لأننى مازلت أحاول، ربما لأننى....

- أحببتيه.

فنظرت إليه فى تعجب!! وفتحت فمى لأدافع و لكنه باغتنى قائلا:

- شماعة الحب وحدها من تجعلنا نصبر ونتحمل من العذابات ألوانا، ممنين أنفسنا بآمال كاذبة.

لقد هربت من سجن لتدخلى بإرادتك إلى معتقل،لاتعرفين شيئا فعليا عن سجانك، والآن بعد أن وضع نطفته داخل أحشائك يتهمك بالخيانة، طبعا فلا يوجد إنسانة طبيعية تتحمل شبحا مثله. - - لقد أوهمت نفسك بحبه لتبررى لها الأهوال التى تطعمينها إياها ولتجدى سببا يقعنك بالصبر على التنكيل الذى لحق بها.

هزتنى كلماته الأخيرة ولم أعلم ماذا أقول فأنفجرت بالبكاء، ولكنه لم يحنو على تلك المرة كعادته، بل وقف ونادى

على الخادمة، وقال لى : «سترشدك إلى غرفتك وفى الصباح لنا حديث آخر».

وذهب..هكذا تحول فى لحظة من أيمن الحنون، الرقيق، الساحر إلى أيمن الغاضب، الجاف والحازم.

ذهبت معها ووجدت الغرفة آية فى الروعة والجمال، وتذكرت حينها كلمات أخته عن أمره بإعداد الغرفة قبل حتى أن يعرف عنى شيئا!! ترى ماذا يخبئ أيمن خلف عينيه.

قضيت ليلتى فى انتظار النهار، لم أنم ولم أتحرك، رقدت على جانبى أحملق فى النافذة بلاحراك، استرجعت كل شئ حدث بينى وبين أيمن، هل حقاً أحبنى وأننى المرأة التى جعلته زاهدا؟! وماذا أفعل هنا ولماذا اتصلت به ولم أحاول الوصول إلى سمية أو حنان، أكان عقلى الباطن يدرك حبه هذا وعقلى الواعى ينفيه طاعة لغشاوة الهروب التى وُضِعَت عليه؟!

شعرت بتقلصات شديدة فى معدتى و استشعرت أن تلك اللحظة هى لحظة فاصلة فى حياتى و أن الأمور لن تعود أبدا كما كانت،وأن ماسيحدث لن يكون خيرا أبدا،وهل أستحق الخير!.

سمعت طرقات على الباب،فنهضت بكسل وفتحته فإذا به يقف مطأطئ الرأس وقال:

- «بما أن النوم لم يزركِ، سأنتظرك فى الأسفل حتى تستعدين للخروج»

لم يمنعنى ذهولى من طاعته دون تساؤل.

ركبنا سويا سيارته وبعد صمت طويل،قطعه قائلا:

- «لقد فكرت طويلا فى وضعك الحالى ورأيت أنه يجب أن تذهبى إلى والدتك وتستقرى لديها، فإذا عاد إليه رشده وجاء إليك يجب أن يدفع ثمن ماقاله وأن يضع مبلغا من المال لابنته تحت وصايتك وإن لم يفعل، تنتظرى حتى تضعين تلك الطفلة ثم نجبره على إجراء تحليل ال **DNA** لإثبات نسبها إليه ليتحمل تكاليف حياه ابنته، ثم بعدها تقررين إن كنت ستستمرين مع هذا المخبول أم ستتركينه».

- « مهلا مهلا!! أصبحت تعلم الغيب؟! بالأمس أختك تقول أنك أمرت بإعداد الغرفة مسبقا و اليوم تخبرنى بأنك تعلم أننى لم أنم والآن تقول «ابنته»!! وتتحدث كأنك جلست طويلا تخطط و ترتب أفكارك، ماذا يحدث، ما كل هذا!»

- أجاب فى هدوء،هذا أمر لن أستطيع تفسيره وعدم قدرتى على تفسيره لا ينفى حقيقته.

- دعينا نصب تركيزنا على الوضع الحالى وعلى أمرك ولا تزيدى الأمور تعقيدا، أرجوك.

- تنهدت فى يأس و قلت، فليكن.إلى أين نحن ذاهبون الآن؟

- إلى والداتك والحقائب فى شنطة السيارة. وإذا سألك أحد أين قضيت ليلتك، ستقولين عند صديقة لى تدعى «سما»، بالمناسبة هذا اسم أختى.

أشحت بوجهى بعيدا عنه، وسرحت مع تلك الأعمدة المنبثقة من الأرصفة فى شموخ و ثبات، تحمل على رأسها تاجا يضئ الطريق للسائرين ليلا، ورغم خشونة حديثه وسلوكه إلا أننى لم أتمكن من مقاومة مقارنته بتلك الأعمدة، هكذا أراه، نبراسا ترسخت جذوره فى الأرض، ليهدى التائهين.

لقد تولى كل شئ، أناب عنى فى التفكير، كما وضع حقائبى فى سيارته، لم يحاول مناقشتى، ربما لأنه اعتاد على التعامل مع الأزمات بمفرده، أو لأنه أدرك شح الخيارات المتاحة.

أوقف السيارة قبل شجرتى الصامدة، وجلسنا نتأملها فى هدوء كأننا أبرمنا هذا الاتفاق مسبقاً، ثم ترجلت من السيارة وترجل هو الآخر مسرعا، أخرج الحقائب ووضعها أمام بوابة العمارة، وصفق بيديه مرتين ثم اختفى، ظهر البواب مهرولا وحمل الحقائب وهو يكرر جمل الترحيب المعتادة، وضعت إصبعى على الجرس وشعرت بالكهرباء وهى تنتقل منه إلى جسدى ولكننى لم أرفعه إلا بعد أن فتحت لى الباب.

نظرت بذهول إليّ ثم إلى الحقائب، ثم إلى وجهى مرة أخرى ووضعت كفيها عليه وقالت: «وجهك أصفر!» ثم جذبتنى من ذراعى إلى الداخل.

قلت لها باختصار عن اتهام خالد لى وبأننى حامل. لم تعلق ولكنى رأيت فى عينيها نظرة إشفاق وأسى لم أعهدها. اعتدت أن تنظر إليَّ بنظرة تملؤها قلة الحيلة، تخبرنى بأنها مغلوب على أمرها ولا تملك لى من الأمر شيئا، ولكن هذه المرة الأمر مختلف، الإحساس جديد ورغم مابى من آلام و خوف شعرت أننى أكثر هدوءًا و أننى فى أمان، على الأقل الآن.

مر يومان ونحن فى حالة صمت طويل، عدت إلى العمل كأن شيئاً لم يكن. وانتظرت ولا لوعة تعادل جوى الانتظار.

لم أعد متأكدة، ماذا كنت أنتظر. هل انتظرت خالد أم أيمن ولماذا كلما مر الوقت كلما ازدادت نار الغضب داخلى اشتعالا. هل كنت غاضبة من خالد أم أنه أتاح لى الفرصة كى أتخلص أخيرا منه؟ أم كنت غاضبة لأنه ترك جزءا منه بداخلى سيظل يربطنى به للأبد؟ أم أننى كنت غاضبة من أيمن؟ ولكن لماذا أغضب منه؟ ما ذنبه هو؟هل أعاقبه على تركى لدى أمى؟ ولكن ما كان يصح أمر غير ذلك، أم أعاقبه على حبه الصامت لى؟ أم أعاقب نفسى على غبائى وحماقتى؟

إلى أن جاء يوم، انقلبت فيه الأمور رأساً على عقب.

كنت فى غرفتى ممدة على الفراش بعد يوم عمل مرهق، أقرأ كتابا لا أتذكر عنوانه، ولكنه كان يتحدث عن خرافة التقاليد على مر العصور، حين وجدت أمى تطرق الباب ثم تدخل ووجهها يشع رعبا وارتياب، بلعت ريقها بصعوبة وقالت: «خالد ووالدته بره».

ظننت أننى لم أسمع، ومكثت محملقة فيها دون رد فعل أو كلام. أعادت علىَّ ماقالته، ثم خرجت ساحبة الباب من خلفها، وهى تتمتم بكلام لم أفهمه.

لا أعلم لماذا قفز أيمن إلى ذهنى، وكأن السند والغوث قد تجسدوا فى شخصه، وكنت أهم بطلب رقمه ولكنى تذكرت أنه لم يكلف نفسه بالسؤال عنى ولو مرة منذ أن تركنى خلف شجرة السنديان التى مازالت صامدة إلى اليوم، فعدلت عن تلك الفكرة وقررت أن أخرج لأواجه مصيرى الأسود بنفسى دون عصاى الذى اتكأت عليه من قبل فتخلت عنى وتركتنى أقف وحدى فى مهب الريح، عرضة للانهيار فى أية حظة. تعمدت أن أخرج إليهم فى أبهى صورة، وبالفعل تزينت بلا إسراف وارتديت فستانا تملأه فراشات تلونت بألوان الباستيل المبهجة متناثرة فوق خلفيته بيضاء .

خرجت إليهم، دون أن أنطق بكلمة، جلست ووضعت ساقاً فوق الأخرى وتأهبت لبداية المعركة المنتظرة. ظلت والدته تنظر إليه تحثه على الحديث ولكنها اضطرت فى النهاية أن تمسك بدفة الحوار.

- «خالد حكى لى اللى حصل، وهو غلطان مافيش كلام وهو النهاردة جاى يعتذر لك ويستسمحك ترجعى معاه لبيتك.»

- فنظرت إليه فى تحدٍ، منتظرة منه أن يؤكد كلام والدته التى ظهرت فى حياتنا فجأة لتبدى هذا الاهتمام المريب.

فاضطرت والدته أن توجه كلامها إليه: تحدث ياخالد واعتذر لزوجتك ففى النهاية هى أم ابنك!

لهذا ظهرت الآن، أم ابنه!! إذن أنا الآن فى مركز قوة.

نطق خالد أخيراً:

- «لم أكن فى حالة مستقرة، وتغيبك آثار الشك فى نفسى، أنا بشر فى النهاية والبشر خطَّاء، ودعينا لا نبالغ و نعطى للأمر حجما لا يستحقه»

عندها وقفت وقلت:

- «نبالـغ! لقـد اتهمتنـى فى شرفى! كل مـا فـات شـئ و هـذا الأمـر شـيئا آخـر.

ثم اتجهت إلى والدته:

- «والآن جئتـى مـن أجـل ولى العهـد، لمـاذا؟! فقـد أخرجـت للحيـاة ابنـا مريضـاً، ثـم مـا أدراك أنـه ولـد، ربـما تكـون فتـاة و تشـبهنى أيضـا!»

حاولت أن تخفى غيظها و تتحكم فى أعصابها و قالت:

- «خالد أخطأ و جاء ليعتذر، ثم ولد أو فتاة لافارق»

جلسـت مـن جديـد، واسـتعدت وضعيتـى السـابقة فى هـدوء مبالـغ فيـه، جعلهـم يتبادلـون نظـرات الاسـتفهام.

- «إذن، يقـوم بتحويـل نصـف مليـون جنيـه إلى حسـابى مـن أجلهـا أو مـن أجله،لأتاكـد أنـه حسـن النيـة وهـذا كلام نهائـى»

قفـز مـن مكانـه وكأن عقربـا لدغـه، وأخـذ يزَعَق:نصـف مليـون جنيـه؟ لمـاذا؟ ومـا أدرانـى أنـك سـتعودين؟

وقفت واقترتب حتى صار وجهانا متقاربان وقلت:

- «بلاضمانـات، إن لم تفعـل ذلـك، سـأنتظر حتـى الـولادة، وسـأجبرك عـلى إجـراء تحليـل ال**DNA** وحينهـا سـتدفع بأمـر المحكمـة، فأنـا واثقـة مـن شرفى ولا أهـاب شـيئاً، ولكـن حينهـا

ستصير سيرتك على كل الألسن وهذا أمر تكرهه للغاية، فأنت تعشق تجميل نفسك أمام الجميع لتبدو ملاكا رائعاً، والله وحده يعلم حقيقتك المشوهة.

حاولت أمى تهدئتنا:

- «شيطان و دخل بينكم»اصمتا الآن حتى لا تتماديا فى إهانة بعضكما أكثر من هذا»

قلت له و أنا متجهة إلى غرفتى:

-»فكر فى الأمر،الآن أو أبداً، وأغلقت خلفى الباب وأنا أشعر بلذة الإثارة تسرى فى عروقى،لم أنتصر بعد ولكننى واجهته أمام والدتى ووالدته،ففى النهاية أنا لست مثل أمى تماماً، وهذا أعطانى إحساس كبير بالراحة و الثقة.»

لا أعلم ماذا حدث فى الخارج،ما أعرفه أنه بعد قليل دخلت أمى و هى تزف إلَيَّ بالنبأ:

- «لقد وافق خالد على شرطك»

فأجبتها وأنا أحاول ادّعاء اللامبالاة: حسناً، فى الصباح الباكر يقوم بتحويل المبلغ وعندما أتأكد من صحة الأمر سيرسل لى سيارة لتعيدنى إلى المنزل».

وعـدت للسـجن الـذى اخترتـه، مـرة أخـرى بإرادتـى وكأننـى أنتقـم مـن أيمـن وأعاقبـه بالنسـيان،

وبـدأ جحيـم آخـر، تشـتهى فيـه المـوت لكنـه يتعـزز ولا يأتيـك، فيمـوت جـزءاً جديـدًا مـن روحـك كل يـوم حتـى تتحـول إلى جثـة خاويـة، محتسـبًا عـلى الأحيـاء، منتميًـا إلى لأمـوات.

***

الوجه الآخر «من أنت؟»

«أنت المُدان الرئيسى و المسؤول الأول عن تعاستك؛ لأنك اخترتها بمحض إرادتك،أنت من قرر الذهاب إلى السجَّان ورجوته كى يضعك فى زنزانته الوردية ،وعندما نسى باب الزنزانة مفتوحاً سهواً خرجت أنت لتتنشق الهواء النظيف،ودخلت ذراته المنعشة و تغلغلت فى خلايا رئتيك تداعبهما برقة و عذوبة وعندما كانت أمامك فرصة للخلاص و شاهدت الطريق الواسع مفتوحاً أمامك،فزعت من الحرية التى تعرض عليك للمرة الأولى فى حياتك،فقمت بمساومة سجّانك على بعض المال كى تستمر معه مكبلا!»

الخرس ثقب أسود يبتلع الجدران والأصوات و الألوان و الروائح، يذيب كل ما يحيط بك و يعيد صبه من جديد ليكسو حتى الهواء بالقتامة والسواد، فتجد نفسك تغرق كلما مر الوقت حتى يذوب الوقت نفسه وتجد نفسك بلاحراك فى

نفس النقطة رغم تواتر الأحداث كومضات متسارعة فتفقدك قدرتك على التمييز.

بيننا غيظ مكتوم،عيناه تتحاشى النظر إلىَّ، وكأننى نار لو اقترب منى احترق،وما النار إلا ما بداخله من غيظ و حنق علىَّ؛ لأنه رضخ للأمر بسبب نطفته التى كبلته وألجمت غضبه، أما أنا فنسيت الكلام و كأننى تأقلمت على فكرة اخترناها دون اتفاق «فليدعِ كل منا أنه يعيش مع أخرس»، لذلك كنت أتمادى فى الانغماس فى العمل والحديث مع الزملاء والأفواج الجديدة اللتى تتوافد علينا والتى ازدادت بشكل ملحوظ عن الأشهر السابقة نظراً لموسم السياحة المزدهر، كنت أحاول أن أعوض نفسى عما تفتقده من أنس البشر وأستبدل سكنة الأشباح برفقة أجساد دافئة وأصوات صاخبة ونظرات غير النظرات الجاحدة الجامدة.

***

وبعد يوم مرهق و مزدحم عدت أخيرا للمنزل، كنت أتضور إلى الفراش، خلعت حذائى و ارتميت على المقعد لألتقت أنفاسى، ولكننى سمعت صوتاً ما، صوت مر وقت طويل على سماعه، حاولت أن أميزه، كتمت أنفاسى المتلاحقة حتى لا تشوش على سمعى الذى كان بالفعل قد تأثر من هول الصدمة، نهضت ببطء مشهد سينمائى يعرض قصدا بالتصوير

البطئ لإثارة المُشاهِد وحثه على الانفعال مع الأحداث، حاولت البحث عن مصدر الصوت، اقتربت من الحجرة، لم أستوعب، لابد أننى أحلم، فتحت الباب وإذا بسكين ثلمة تغوص فى أحشائى ببطء و تلذذ حتى ظننت أن طفلتى قد أصيبت، تجمدت أطرافى ونقاط العرق البارد تنساب من جميع زوايا جسدى بلا تحكم، ظللت هكذا متجمدة، حتى التفت لوجودى ونظر بلا مبالاة، فقام من عليها ونهض من سريره عاريا، مشى بهدوء صوب الحمام والتفت مشيرا إليها لترتدى ملابسها وتستعد للرحيل، كانت تستجيب لإشاراته الصامته وكأنها قد تمت برمجتها أو اعتادت على الأمر.

وكأننى لم أكن، كأننى وهم، مجرد خيال تمثال يقطع شعاع الشمس المتلصص على الجريمة الواقعة، تبخر الزمن والمكان، ودارت الدنيا أو درت أنا وتوقفت الحياة، تواترت طبول الآلام دقاً فى رأسى ولازمتها ومضات من الأضواء المزعجة، ثم ساد السواد.

***

الأضواء تعود إلىَّ زاحفة، وسائل دافئ يتسرب من رأسى له رائحة الألم، آلام توخز ظهرى وتتغلغل فى جسدى المُسجَى على الأرض، الهدوء يسود المكان وكأننى فى بطن الليل بلا أنفاس تؤنسنى، جاهدت حصار الأوجاع و حاولت

النهوض، ولكننى سرعان ما فقدت توازنى و كدت أقع مجددا لولا أننى تماسكت فى اللحظة الأخيرة واتخذت الحائط سندا لى و سرت ملاصقة له وكأننى أحتمى به وأتوسل إليه لينقذنى، ومع كل خطوة بطيئة للأمام و مع اقترابى من الباب، تزداد رائحة الدخان وعبق أعرفه جيدا. وجدته ممدا على الأريكة، يمتص سيجاره بتلذذ، ويزفر الدخان إلى أعلى، وأمامه التلفاز، وكأننى لم أكن فاقدة الوعى، وكأننى لم أره فى سريرى مع مومس، وكأننى لا غير موجودة.

عندما أحس بوجودى، نظر إلى الدماء السائلة من رأسى، ثم أشاح بوجهه بعيدا وهو يقول: »إذن مازلت حية، لقد كنت أهنئ نفسى على تخلصى منك أخيراً، خسارة»

لا أعلم من أين جاءت الطاقة والقوة لأنطق، كيف تمكنت من ابتلاع الإهانة و الطعنة و الخيانة، صرخت فيه بأعلى ما لدى من صوت:

«ما كنيتك؟ الحيوان يشعر بألم أقرانه، يحزن، يتحرك أما أنت، أنت أدنى المخلوقات، لقد خنتنى أمام عينى وتلذذت برؤيتى و أنا مهانة، فقدت الوعى و تركتنى غارقة فى دمائى، لماذا تزوجتنى؟! لماذا أعدتنى؟؟ من أجل مولودك القادم؟ ألم تخف عليه من الموت معى؟ ماذا تريد؟ أنا لا أريدك ولا أريد هذا الطفل»

اخرسى..لا أريد أن أسمع لك صوت، لقد خنتك قبل أن تخونيننى، أهنتك لأننى لا أحبك،أنت لا تفهمين، أنت أداة للتسلية فقط، لن أتحدث مع أداة للتسلية، مثلك مثل الساقطة التى رأيتنى أعتليها على فراشك، الفارق بينكما أنها تعيش فى الظلام و أنت تستمتعين بالنور.

«أى نور!! و أية أداة!! أنت مريض ويجب أن نبحث لك عن طبيب أو مصحة تُحبس فيها كى ترحم البشر من شذوذك، الحياة معك كالعيش فى كهف يقف عند مدخله الذئاب الجائعة، فلا يمكن أن تترك الكهف ولا يمكن أن تطلب من الذئاب أن تقتلك برحمة، فالعذاب هو المصير المحتوم مهما كان الخيار»

ومن أجبرك؟! لقد طيرت السعادة عقلك عندما رأيتنى ألهث خلفك،مثلك مثل كل جنسك من النهاردة، الحيات اللعوبة المدعية البراءة، لذلك لم أتمكن يوماً من اثبات خيانتك، تركت لك الحرية، لتعملى وتسافرى ولكن لاشئ!، لم أتمكن من اقتفاء الآثار خلفك، ما أدهاك، ما أخطرك.

ظل يلهث كالمجنون، يقطع غرفة المعيشة ذهاباً و إياباً بسرعة فائقة حتى ظننت أنه سيفقد الوعى فى أى لحظة.

وأخـذت أصرخ أنـا الأخـرى: «أنـت فعـلا مريـض، فاقـد للإنسـانية، فاقـد للاتـزان، لقـد تزوجـت مخبـولا، مخبـولا»

و جلست أرضا بين الصحو والغفلة، أُحدِّث نفسى وكأنه تبخر من المكان:

هربت من سادى إلى أحضان مخبول، ملعونة أيتها البائسة، ملعونة إلى يوم الدين.

هربت من سادى إلى أحضان مخبول، ملعونة أيتها البائسة، ملعونة إلى يوم الدين.

كم مرة كررتها، لا أعلم ولكنى أتذكر جيداً أن قبضته أيقظتنى من حالة السكر التى أصابتنى ،تبعتها ركلاته فى بطنى و صراخه بكلمات لم أميزها، لم يتركنى إلا بعدما رأى بعينيه الدماء تجرى تجاه قدميه وكأنها تستجديه أن يكف، ارتمى بجانبى و ظل يبكى و يرتعش واختفى كل شيئ.

الطنين ثابت الوتيرة، الأسلاك تمتد من ذراعى، الفراغ الأبيض يُغلفنى ولايزعجنى،الحرارة منخفضة، لا أشعر بالألم، ولا أشعر بجسدى، هل فارقت الحياة أم مازلت عالقة فيها، ثم سمعت خطوات هادئة تقترب منى، تهمهم بكلام لا أسمعه جيدا، تقرب ضوءًا من عينى و تنظر إليهما جيدا، تُمسك برسغى، تبتسم وتقول شيئا آخر، ولكن تلك

المرة ليس لى بل لشخص يقف بعيدا. اقترب هو الآخر من وجهى، ظل يحدثنى و يذكر اسمى كثيراً حتى بدأت أعود من العالم الآخر، عالم الفراغ و اللاشئ.

إنه «الدكتور أشرف» صديق المخبول، وتلك مستشفى، الآن قد عدت.

***

«حمدا لله على سلامتك»، بدأ حواره معى بتلك الكلمات وابتسامة حنونة تزين وجهه و بدا أقل حدة وتحفز منذ آخر مكالمة تمت بيننا يوم استغثت به عندما مرض خالد، ثم سألنى عما حدث.

ولكننى لم أتمكن من البوح، صمت وظلت اللحظات الأخيرة تتكرر فى مُخِيلتى وانسابت دموعى قَسراً، وإن كان يستشعر سابقاً الريبة فيما حدث لى فقد تأكد الآن.

لم يُعقِّب، وأدار لى ظهره وخرج من الغرفة، ثم تبعته الطبيبة الأخرى، وبعدها بدقائق دخلت الممرضة المُكلَفة برعايتى وأضافت شيئاً ما إلى السائل الذى يغذى وريدى، وشعرت بالارتخاء و رحت فى النوم سريعا.

عندما صحوت وجدته بجانبى، يتأملنى فى شفقة وأسى، ارتبكت ولم أعلم كيف أتصرف أو ماذا أقول و رغم محاولاتى

لأبدو طبيعية، وجدت نفسى أقول لا إراديا وكأننى مسيرة تماما:

«كيف جئت إلى هنا؟ ماذا حدث؟»

«ألا تتذكرين ما حدث؟»

لا،لا أتذكر

«بلى! تتذكرين جيدا وستروين لى بالتفصيل كل شئ لأقرر ما هو التصرف الصائب.

شعرت بالخجل و ازداد ارتباكى، ويبدو أنه شعر بذلك فربت بيده على يدى و قال لى:

«ثقى بى، أنا طبيب قبل أن أكون صديق خالد»

حاولت أن أقوم بآخر محاولة للمقاومة، فقلت:

«لماذا تصر على وجود شئ مريب؟! قلت لك لا أتذكر»

فانتفض من مكانه فجأة وقال:

«لا تراوغينى!! أنا طبيب وقد جئت إلينا بعد أن أبرحك ضربا!!،لماذا تصرين على التستر عليه، ما قام به جريمة يجب أن يُسجَن بسببها، أجعلك تتلذذين بعذابه لك أنت الأخرى!

«أنا الأخرى!!!»

«الآن حظيت باهتمامك»، قالها وهو يعود لمقعده بجوارى وشبح ابتسامة تعلو شفتيه.

«خالد إنسان مريض، ومكانه المناسب هو مصحة للأمراض النفسية وزواجه منك ومن أية امرأة جرم كبير، يجب أن نُحاسب عليه جميعاً وأنا أول المذنبين؛ لأننى لم أتصد لهذه الزيجة بقوة كافية»

«تتصدى بقوة كافية؟؟. ماذا تعنى؟؟ ومريض؟؟ لا أفهم»

سأروى لك كل شئ، ولكن أريدك أولاً أن تتعافى وسنتحدث طويلاً، وحالياً أشعر بالرضا لأنك لم تنكرى أنه من أبرحك ضربا.

حاولت أن أرد ولكن تبعثرت الحروف فى حلقى ولم تتجمع لتكون كلمة تنطق، فوجمت.

وقبل أن يتركنى و هو واقف عند باب الغرفة قال:

«بالمناسبة، الجنين مازال سليماً رغم كل شئ»

وتركنى لأفكارى ووساوسى تنهش فيَّ وتمزق نفسى بلا رحمة.

***

لم يظهـر خالـد طيلـة مكوثـى فى المشـفى، ولم تظهـر أمـى ولم يظهـر أخـى، فقـط أرسـل رب عمـلي باقـة ضخمـة مـن الأزهـار مـع بطاقـة يتمنـى لى فيهـا الشـفاء العاجـل. واسـتدعيت صـورة أيمـن مـرة أخـرى مـن صندوقهـا المحفوظـة داخلـه فى مؤخـرة عقلى عندمـا شـعرت بالخلاء الـذى حاصرنـى، وأخـذت أتسـاءل أهـذا القـدر خاليـة حياتـى، أهـذا القـدر لا أعنـى شـيئاً لأحـد، أهـذا القـدر لم يكلـف أحـد نفسـه لُيبلِّـغ أهـلى، أم أبلغوهـم و لكنهـم لم يعبـأوا بـى ولم يهتمـوا لأمـرى و ربـما أيضـا يتوقـون إلى موتـى!

فكـرت فى مهاتفـة أيمـن وتلفـت حـولى ولكنـى لم أجـد هاتفـى وتذكـرت أن أشرف لم يطلعنـى بعـد كيـف جئـت إلى المستشـفى، فتملكـت منـى خيبـة الأمـل واسـتفحل إحساسـى بالشـفقة عـلى حـالى وبـدأت فى نوبـة مـن البـكاء حتـى تضخمـت وبلغـت حـد النـواح، لدرجـة جعلـت الممرضـة تركـض فزعـة وظنـت للوهلـة الأولى أن ألم شـديد قـد هاجمنـى لكننـى أشرت إليهـا كـى تتركنـى بمفـردى وقلـت بكلـمات مهترئـة أننـى بخـير، وتركتنـى عـلى مضـض، ويبـدو أن أول مـا قامـت بـه عندمـا رضخـت للأمـر هـو ذهابهـا إلى أشرف لتطلعـه عـلى الأمـر، لذلـك مـرَّ عـلى فى الصبـاح الباكـر وكنـت بـين الصحـو والغفلـة و سـمعته يقـول لهـا:

«لقد نامت الآن،لا تتركى الغرفة مهما حدث»

ولأول مـرة منـذ زمـن، شـعرت أن هنـاك مـن يهتـم لأمـرى حتـى وإن كان اهتـمام طبيـب بمريضتـه، وسـكنت لوجودهـا واستسـلمت لنـوم عميـق مـن شـدة الإعيـاء غصـت فيـه حتـى انتهـت رحلتـى معـه عـلى دقـات الثالثـة عـصرا.

بمجـرد أن حرَّكـت جفنـىِّ، قامـت الممرضـة بإخبـار أشرف، الـذى ولـج مسرعـاً، وأخبرنـى بـأن آخـذ وقتـى فى الفطـور والاسـتعداد لأننـا سـنخرج اليـوم لنتمشـى قليـلا فى حديقـة المستشـفى ونتحـدث.

تفاجـأت بوجـود بعـض مـن ملابسـى أحضرتهـا إلىَّ الممرضـة وتـرددت قبـل أن أسـألها عـن الهاتـف ولكنـى سـألت، ولمفاجأتـى وجدتهـا تحضره لى مـن داخـل الحقيبـة التـى كانـت بهـا متعلقاتـى، وتذكـرت تلـك الحقيبـة، لقـد أحضرهـا لى خالـد قبـل زواجنـا مبـاشرة وأخذتهـا معـى فى «شـهر العسـل» المزعـوم، تنهـدت وأشـحت ببـصرى عنهـا، تابعـت الممرضـة وهـى تتحـرك فى الغرفـة جيئـة وذهابـا تخـرج أشـياءً مـن الحقيبـة وتنقـل أخـرى وأنـا لا أتحـرك، ثـم بـدأت فى الاسـتجابة قليـلا و بـدأت فى الانـدمـاج داخـل المشـهد الـذى علقـت فيـه و مـازال عقـلى لا يقـدر عـلى اسـتيعابه و أظـن أننـى فى أيـة لحظـة سـأفيق لأجـد نفسـى عـلى سريـرى فى منـزل أبـى، يـاه أبـى لمـاذا أتذكـرك الآن!

تمهلنا فى السير، لا يركض أمامنا الوقت ولا يركض خلفنا الماضى، ولكن التساؤلات صنعت وحشاً أكثر ضراوة منهما، أثقلتنى وزادت من تباطئى، حتى قرر أشرف أن يكسر حائط الترقب الذى حال بيننا وكأنه يقرأ أفكارى ويحمل فى جسده جهازا يقيس به انفعالاتى و يكشف به ما يدور بين طيات نفسى العالقة فى أسر الجهل والضياع، تنتحنح ثم قال:

«خالد هو من اتصل بى يصرخ ويستجدينى أن أغيثه ولم أفهم شيئاً منه فى الهاتف سوى أنك تعرضت لحادث وتحتاجين إلى سيارة إسعاف بأقصى سرعة ممكنة، وبالفعل قمت بإرسال سيارة الإسعاف التى أحضرتك إلى هنا وخالد بجانبك يبكى وينتحب فى قمة الانهيار، وعندما سألته عما حدث قال لى: «لقد فعلتها ثانية» وانفجر فى نوبة هيستيرية من الصراخ الممزوج بالضحك وفى تلك الأثناء كنتِ فى قسم الطوارئ يقوم فريق من أكفأ الأطباء بإغاثتك. أخذته فى مكتبى وأعطيته مهدئاً، حتى استقر جزئياً، وبدأ يحكى لى كلاما غير مترابط، جمع بين أحداث جديدة وأخرى قديمة وأخذ يخلط بينك و بين «دعاء».

«دعاء!!!»

«دعاء كانت زميلة خالد فى الجامعة وكانت تجمعهما علاقة عاطفية أو هكذا بدت فى بادئ الأمر.

كان يبـدو طبيعيـاً، يقـوم بـما يقـوم بـه أى شـاب ؛ فى مثـل سـنه و لـه نفـس مسـتواه الاجتماعـى المرمـوق، مـع فتـاة يحبهـا، يغـدق عليهـا بالهدايـا والمكالمات و الرسـائل الغراميـة والاهتـمام و المفاجـآت، حتـى بـدأت تبـدو عليـه بعـض التصرفـات غـير المنطقيـة وغـير المـبررة، بـدأ يشـك فى تصرفاتهـا، يراقبهـا ويختلـق المشـاكل بـلا أسـباب واضحـة.

معرفتـى بخالـد كانـت منـذ أيـام المدرسـة، ولكنـى لم أكـن أعـرف شـيئاً عـن أسرتـه أكثـر مـن الأسـماء ووظيفـة كل منهـم، لكـن حقيقـة مايـدور خلـف الأبـواب المغلقـة، الحقائـق المدفونـة فى سرداب نفسـه العطنة،عرفتـه فقـط عندمـا طلبـت مقابلتـه فى أحـد الأيـام وتحدثـت معـه عـن علاقتـه بدعـاء وأنهـا هاتفتنـى تشـكو لى مـن تصرفاتـه الغريبـة وتغـيره المفاجـئ معهـا واختلاقـه للمشـكلات، فثارعـلىَّ لأول مـرة منـذ صداقتنـا واتهمنـى بأننـى أتجنـى عليـه وربـما وسوسـت لى نفسـى لأخونـه معهـا، فاحتـد الـكلام بيننـا، فبـدأ ينضـح إنـاؤه بـما كان يخبـئ طـوال السـنين الماضيـة، وقـال أن دعـاء لابـد أن تكـون خائنـة مثلهـا مثـل كل النسـاء، تبـدو وديعـة، مسـالمة، محبـة ومخلصـة ولكنهـا تحمـل تحـت هـذا القنـاع الباهـى الجميـل، قلـب مومـس ووجـه شـيطان.

وروى لى عـن رؤيتـه لوالدتـه وهـى تطـارح رجـلا غـير أبيـه الغـرام فى بيتهـم وعـلى فـراش أبيـه، وعندمـا يعـود أبيـه

من عمله؛ الذى يسافر إليه أسبوعيا إلى مدينة أخرى ليعود ويجتنع شمل الأسرة فى نهاية كل الأسبوع والعطلات الرسمية، تقابله بكل ود وحنان وتحكم الدور بدهاء حرباء تتلون حسب الدور المخصص لها، ورغم أنه سمعها تشكو منه وتشعر بالاشمئزاز حينما يقترب منها، تبالغ فى تدليله عندما يعود، أما عن أخته فلابد أن لها هى الأخرى وجها آخر، لكنه لا يعبأ لأمرها فلتحترق فى جهنم أو ليبتلعها البحر لا يهم.

«هكذا كان وصفه»

لازمت خالد تلك الفكرة طوال حياته، وسيطرت عليه حتى تحوّلت إلى مرض مزمن، ففى أحد الأيام استيقظت على خبر انتحار دعاء، وسط ذهولى من هول الصدمة واستبعاد احتمالية خطورة خالد على أي إنسان حتى وإن كان مهووسا بفكرة ما، وكنت وقتها فى آخر سنة فى كلية الطب ولم نكن نتقابل كثيرا نظرا لضيق وقتى حينها، فلم أكن مطلعا على تواتر الأحداث و تطورها بينهما، وفى العزاء بكى خالد كما لم يبك من قبل، ارتمى بين ذراعى ودفعنى أرضا وملأ نشيجه السرادق حتى كاد يغشى صوت المقرئ، وظل جسده ينتفض وبدأت حرارة جسده تنخفض حتى شعرت بأطرافه تكاد تتجمد خصوصاً وقد كنا فى شهر يناير وفقد يومها وعيه

وحملته مع مجموعة من الرجال إلى سيارتى وأخذته إلى المنزل.

بعد أن استعاد وعيه، استند علىَّ حتى أوصلته إلى سريره وسط ذهول أمه وأبيه؛ اللذين رحلا باكرا من العزاء، وعندما ارتمى على السرير وهممت بالرحيل استوقفنى واعترف بفعلته الشنعاء وكأننى قسيسا يعترف له من وراء حجاب!!

قال خالد يومها بكلمات متقطعة وجمل غير مكتملة:

«لقد أردت ان أثبت أنها مثلهن، يغويها ما يغويهن، وستخضعها الشهوة لى، وسترضخ لتسلم زمام الأمور إلى إبليس سيدهن جميعاً، أخذتها لتشاهد الشقة التى كنت أنوى شرائها من أجل الزواج، ووافقت ورافقتنى إلى هناك وهى متحمسة وسعيدة أننى أقدمت على تلك الخطوة و ظلت تثرثر عن سعادتها؛ لأننى أفكر بجدية فى علاقتنا وأننى الآن أثبتُ لها أننى أهل لتحمل المسؤولية، وتكبدت عناءّ مريرًا لأتحمل ثرثرتها حتى وصلنا، ولم يكن هناك بواباً كما قلت لها، وأغلقت الباب خلفى وحاولت استمالتها ولكنها تمنعت، ثم قاومت، ثم سبت، فصرخت فيها لاعنا، وأمرتها أن تكف عن تمثيل البراءة والطهر وأن تعترف بعهرها ومجونها، ولكنها نعتتنى بالمخبول، فانقضضت عليها وولجتها وهى تصرخ حتى فقدت الوعى تماما وارتميت بجانب الفريسة ألهث واكتشفت أنها عذراء، ولكن ماذا يثبت ذلك! وفى النهاية أن أكون أول الواجين

أفضل من أن أكون ثانيهم وأنا مغيب جاهل بمن سبقونى.»

وبدأ يضحك فى هيستيريا، يصرخ ويبكى وأنا متجمد فى مكانى، لا أعلم ماذا أفعل، لقد اغتصبها ولذلك انتحرت، وكيف لم تقم المستشفى الذى نقلت إليه بالكشف عليها!! أم قام بالفعل وأخبر أهلها الذين ربما قرروا التستر على الأمر نظرا لعلاقات والدها التى تصل إلى مكتب الرئاسة! هل أتحدث وأفضح أمر جثة سترت أم ألتزم الخرس فأعيش حاملا للذنب مدى الحياة!

ولم أقم بأى شيئ سوى التحدث إلى والديه وأخبرتهما بأن خالد يشكو من علة ما ويحتاج للعلاج النفسى وإلا ستسوء حالته وسيصير خطرا على نفسه وعلى من حوله، وأنا بين نفسى أُقول «لقد صار بالفعل ولا أدرى إن كان الأوان قد فات لربط لجامه، أم مازالت الفرصة لائحة فى الأفق البعيد»

وعلمت بعد ذلك أنهم أودعوه فى مصحة وظل بها حوالى عاما كاملا، كنت وقتها تخرجت و أقضى عام الامتياز وكان خالد قد سبقنى قبل انتحار دعاء وتخرّج من كلية الهندسة ولم يعرف أحد بأمر المصحة؛ لأنهم أشاعوا أنه سافر إلى الخارج يتدرب فى شركة والد أحد أصدقائه و يقوم بالسياحة فى الوقت نفسه، وعندما خرج من المصحة علمت بالخبر وذهبت لزيارته ووجدته قد عاد طبيعيا أو هكذا بدا.

ولكـن وساوسـه ظلـت مسـيطرة عليـه وحـاول أن يخـوض فى الكثـير مـن العلاقـات التـى كانـت تبـوء بالفشـل سريعـاً نظـرا لتصرفاتـه العصبيـة الغير مستقرة، فذهبت لأقابل الطبيب الذى أشرف عـلى علاجـه، وتحدثـت معـه طويـلا عـن حالتـه وصدمنـى حينـما قـال لى إن خالـد لم يتـم علاجـه و أن والدتـه أصرت عـلى خروجـه مـن المصحـة، ورغـم رفـض الطبيـب الشـديد إلا أن والدتـه قـد لجأت لأحـد المسؤولين الكبـار فى الدولـة وتـم الضغط علينـا وخـرج خالـد وهـو فى مرحلـة حرجـة جـدا مـن العـلاج.

حينهـا فقـط تأكـدت ظنونـى بـأن خالـد أصبـح أكثـر خطـورة مـن ذى قبـل و أن دخولـه فى أى علاقـة فى ذلـك الوقـت سـيكون الفشـل مصيرهـا إن لم يكـن القتـل أو الانتحـار.

قمـت بالعديـد مـن المحـاولات المضنيـة والتـى بـاءت جميعهـا بالفشـل الذريـع أن أقنعـه ليعـاود العـلاج مـرة أخـرى وليـس بالـضرورة أن يعـود إلى المصحـة وأننـى أسـتطيع أن أدبـر لـه الأمـر بحيـث يتمكـن مـن الذهـاب إلى عملـه و ممارسـة حياتـه بإيقاعهـا المعتـاد أثنـاء العـلاج ولكـن بـدون محاولـة للتقـرب مـن أحـد. ولكنـه كان يقابـل كلماتـى بالتجاهـل مـرة والسـخرية أخـرى والانفعـال و الثـورة مـرات. وعندمـا علمـت بأنـه يطـارد فريسـة جديـدة حاولـت أن أثنيـه عـن تلـك الخطـوة ولكنـه تقمـص دور

الأصم معى وفوجئت بخبر زواجه منك عندما وصلتنى دعوة فرحكم فى عيادتى الخاصة. ومن يومها لم أعد معه كما كنا من قبل وتمنيت أن يُخلِّص الله الناس منه بعد أن كنت أدعو له بالشفاء، فخالد بدأ ضحية وتحوّل بدوره إلى جاني و مجرم.

«ألهذا تعاملت معى بلامبالاة عندما هاتفتك أستغيث بك؟»

«نعم، فضميرى لم يعد يتحمل فكرة وجوده مع شخص مهددا بأن يُردى قتيلا فى أية لحظة.»

«ولماذا لم تطلعنى على الأمر قبل الآن؟!»

«وهل كنت ستنصتين إليَّ؟! بربك يا عاليا! لقد كنت متيمة به تماماً، متشبثة به تشبث الغريق بجذع شجرة وسط الفيضان، لقد كنت منومة تماما، مسيرة، معطلة الحواس و الإدراك»

«نعم، الحق معك يا أشرف، كل الحق.

رويت له كا ماحدث بالتفصيل فى الأيام الأخيرة ولم أتطرق إلى ذكر أيمن ولو تلميحا. نصحنى أشرف بألا أعود إلى المنزل، وأن أذهب لأعيش مع أمى كما نصحنى بأن أنفصل عنه لسلامتى وسلامة الطفل القادم إلى دنيا الشقاء بلا أى ذنب، حتى لا يتحول إلى ضحية مع مرور السنين تنقلب بدورها إلى

جانـى فى نهايـة الأمـر.

وسـألته عـما إذا كانـت أمـى قـد عرفـت شـيئاً، وقـال لى أنـه لم يُطلِـع أحـدا عـلى الأمـر حتـى لاتـزداد الأمـور اسـتعارا و أنـه أراد أن يتأكـد أولا مـن كنـه الأمـر . وسـألته عـن خالـد فى الوقـت الحـالى و أجابنـى بأنـه منـذ أمـس خـرج ولم يعـد ويُرَجِّـح أنـه عـاد إلى المنـزل وإلى عملـه و حياتـه وكأن شـيئاً لم يكـن.

هـذا هـو خالـد كـما اعتـاد عـلى التعامـل مـع الأمـور عندمـا تتعقـدا الانغـماس فى الكثـير مـن العلاقـات النسـائية، الكثـير مـن الهيسـتيريا و الصخـب و العمـل.

«ولكنـه معـى كان صامتـا أغلـب الوقـت، وكأننـى أعيـش مـع شـبح أو رجـل أصـم و أبكـم، كأننـى أعـاشر جسـدا بـلا نفـس، بـلاروح، بلاشيئ مجـرد تمثـال ضخـم مـن الصلصـال أجهـل عنـه أكثـر مـا أعـرف».

«هـذا ربـما لأنـه...» تـردد وتوقـف ثـم اسـتطرد ؛ إرضـاءً لنظراتـى المسـتجدية، أحبـك.

«أحبنـى!!! قلتهـا ثائـرة .كيـف أحبنـى؟ لقـد أهاننـى، طعننـى فى شرفى، حـاول قتـلى و قتـل طفلـه»

«هـذا اعتقـادى ؛ لأنـه معـك جاهـد نفسـه كثـيرا بنـاءً عـلى روايتـك لى، وهـذا ليـس منهجـه منـذ حادثـة دعـاء، فهـو كثـيرا مـا

كان ينتهى من معاشرة إحداهن ثم ينهال عليها ضربا وسبابا، كما أنه لا يسمح أبدا للعلاقات أن تصل به إلى مرحلة الزواج»

«وأين كنت أنا!! أين كنت وسط كل هذا العبث!!، نظرت إليه أبحث عن جواب ولكنه نظر إلى الأرض وقال دون أن يرفع رأسه : «يمكنك الخروج اليوم، سأوقِّع التصريح وانتهى من الإجراءات المطلوبة. يجب أن تذهبى إلى والدتك، هذا أكثر أمانا وأعرف أنك لن تتمكنى من رواية ماحدث لها لذلك سأقوم أنا بذلك عنك، سأهاتفها الآن وأُطلِعها على ما تحتاج أن تعرفه فى الوقت الحالى، وعندما تستعدين وننتهى من الإجراءات سأقلك إلى المنزل بنفسى.

ذهب وتركنى. ضاقت الدنيا واختفى كل من كانوا فى الحديقة، ورأيت الأرض تذوب أسفل قدمى، حاولت أن أتفادى السقوط، حاولت أن أتنفس ولكن ظلت الدنيا تضيق وتضيق و تقترب من صدرى حتى ظننت أننى وقعت فى قبرى وأن التراب سينهال على رأسى ليدفننى حية، سمعت صوتى يتردد كالصدى داخل رأسى محدثا إياى»ستوأدين ياعاليا أنت و ابنتك»، طرحت جسدى البالى على أحد المقاعد المثبتة بأرض الحديقة والتى تناثرت فى كل أرجائها، محاولة استعادة أنفاسى الهاربة.

***

بالغت فى الحنو علىَّ ورعايتى،دللتنى بلا كلمات، تفادت الأسئلة والاستجوابات، باتت كالنحلة تدور فى المنزل، تنظف وتجدد، تطهو الأطعمة المختلفة، وتنثر العطور المنعشة. أزالت الستائر الداكنة القاتمة وأبدلتها بستائر مشربة باللون الوردى الفاتح، تبدل المنزل فجأة وبعد أن كان مقبرة للأحياء الأموات، صار أنسب مكان للعيشة الهادئة والمبهجة أيضا.

تحسنت حالتى النفسية ورغم أنه لم يتبق سوى شهرين على موعد الولادة حسب ما قاله لى الطبيب المتابع لى،واظبت على الذهاب إلى العمل وعدم التغيب ولكنى لم أكن أتأخر فيه كما كنت أفعل من قبل، وكنت أحرص على العودة إلى المنزل لأجلس مع أمى نشاهد التلفاز و نشترى الملابس لطفلتى بعد أن أكد لى الطبيب تكهن أيمن.

أصبحت أمى امرأة أخرى، أصبحت تضحك بصوت عال وتقهقه، أصبحت تدندن، أخذتنى بين ذراعيها لأول مرة منذ طفولتى واحتضنتنى بقوة و ربتت على رأسى. فجأة لم أعد حانقة على الحياة، وتأكدت أننى كنت محقة فى كرهى لأبى.

لم يغب أيمن عن بالى لحظة ولكنى أسقطت خالد من ذاكرتى بعد أن كنت قد رفعت عليه قضية طلاق. زارنى أيمن فى منامى كثيرا، يطبطب علىَّ بعينيه المسكرتين، يبتسم لى، يتحدث إلى حديثا حميميا دافئا ويوصينى بأن أجعل

«فرح» اسم ابنتى، لتكون لى فرحا وعوضا عن سنوات الحزن والأسى.

وانتظرت الهاتف يرن ليعلن انتظاره على الطرف الآخر وهاتفه على أذنه ينتظر أن أجيبه و رغم أنه تأخر لكنه فى النهاية فعلها، يومها كان عيدا حتى أن أمى لاحظت تورد وجنتى بعد انتهاء المكالمة المقتضبة بيننا، فغمزت إلىّ وهى تمر من أمامى حاملة الملابس المتسخة، وتبعتها فى خجل، وقفت أمامها وهى تدعى الانشغال بوضع الملابس فى الغسالة، وقلت لها ؛بحياء مراهقة تحاول إطلاع أمها على ابن الجيران الذى تحبه، أتذكرين أيمن؟ زميل الجامعة؟، فأجابتنى: بالطبع أذكره، أليس هو ذلك الشاب الذى كنت أنت و صديقاتك تستغلانه فى إيصالكن إلى منازلكن؟، ضحكت و ضحكت فى خجل، وأجبت نعم هو ذلك المسكين بشحمه و لحمه.

«إذا،هو المتصل؟»

«نعم، ويريد أن يزورنا الليلة. هل لديك مانع؟»

«سكتت، وادّعت العبوس، فتوترت ثم ابتسمت وقالت: اجعليه يأتى فى السابعة، لأننى أود أن أعد كعكة الأناناس اللذيذة»

«عجيبة، هو قال لى أنه يود الحضور فى السابعة أيضا!»

«إذن، فأنا أحبه منذ الآن، وتوجهت إلى المطبخ لتنهى باقى أعمالها وذهبت أنا إلى غرفتى لأختار شيئاً أرتديه بعد أن تحوّلت إلى شئ عجيب ببطنى المكور الذى يقودنى ويبدو على وشك الانفجار فى أية لحظة.

***

كنسمة منعشة تهل عليك وقت الغروب فى عز صيف حار يهلكك من قسوة قيظه، أقبل عليَّ وكأنه لايسير على الأرض كباقى البشر، بدا خفيفا كالريشة، يسير على الهواء فى نعومة و سلاسة متناهيتين، وبسمة مداوية للآلام تزين شفتيه الرقيقتين، وعطر هادئ يفوح منه يزيده بهاءً ونورا، يحمل فى يديه باقة من الزهور التى رأيتها فى حديقته من قبل، يزينها أكثر مما تزينه، يضفى عليها من بهائه وكأنه مَلَك أينما يسير يشع منه النور ليضئ الأدهم و يزيد البهى سناءً و سحرا.

بعد كلمات الترحاب والضيافة المعتادة، استأذنت أمى، وظل ينظر إليَّ بصمت يتأملنى و البسمة لاتفارق وجهه، ثم خرج عن صمته العذب و قال:

«كيف حالك الآن؟»

فأجبته فى دلال خجول

«ماذا ترى أنت؟»

«أرى أنك على خير مايرام، الحمل يليق بك كثيرا»

«لاحظت ذلك، وضحكنا»

«أعتذر منك لأننى لم أظهر قبل الآن، لقد كنت أتقصى أخبارك وعلمت بخبر دخولك المستشفى عندما جعلت أختى تتصل بك فى العمل كأنها صديقتك لأطمئن عليكِ، لكننى ترددت فى زيارتك خوفاً من تفاقم المشاكل أكثر، فتابعت أخبارك عبر أناس أعرفهم فى المستشفى و علمت أنكِ خرجت ولكنى لم أكن أعلم بوجهتك، فآثرت الانتظار حتى أرى أعرف الأحداث و جعلت أختى للمرة الثانية تتصل بك ولكن فى المنزل، وأجابها زوجك عندما سألته عنك بأنك عند والدتك لبعض الوقت، ولن أكذب عليك، ترددت فى زيارتك وعندما علمت بأنك تريدين الانفصال عنه فقط قررت المجىء، وها أنا ذا. قال جملته الأخيرة وهو يشير بكلتا يديه إلى نفسه و يبتسم ولكن شبح الهم قد بدأ يعتلى وجهه، فأضاف إلى شفتيه ابتسامة مكسورة وسحر حزين.

سألته:

«كيف عرفت بأمر القضية؟»

«لم أعرف بأمرها

فنظرت مستفهمة ؟!

أكمل قائلاً:

لقد رأيتك فى منامى وأنت تصنعين سورا بينك وبين خالد وأمك بجانبك تعاونك و رغم حالة الإعياء بسبب الحمل و رغم أنفاسك المتعبة التى كنت أسمعها بوضوح فى منامى لم تدخرى جهدا وصممت على الاستمرار وخالد واقف يشاهد ولم يحرك ساكنا، ولكن السور لم يكتمل، فقررت أن أتقصى الأخبار ثم قمت بالاتصال بك، كيف حال الفتاة؟

كنت قد سرحت مع حديثه ولم أنتبه للسؤال، فكرره:»كيف حال الفتاة»، فنظرت مستفسرة، فأشار إلى بطنى المنتفخ، فوضعت يدى عليه و قلت:

«آه، بخير، تتحرك كثيرا، يبدو أنها تتعجل الخروج»

«هل ستسميها فرح؟»

«وكيف عرفت!!»

«ارتبك و قال، لا أعلم، فقط أتمنى أن تكون لك «فرحا»»

«أمرك مريب يا أيمن، فى الأول تتوقع لجوئى إليك بعد انقطاع استمر لسنوات، ثم تبشرنى بفتاة، ثم تقتحم منامى

لتوصينى أن أسميها «فرح» والآن تريد التأكد من أننى سأنفذ وصيتك؟؟ نعم يا أيمن سأسميها «فرح»؛ لأننى بدأت أؤمن أنك لست شخصا عاديا، ربما فُتِح لك بابا لم يُفتِح لغيرك من قبل، و ربما لأننى حقا أريدها لى فرحا وعوضا.

تنهد فى ارتياح و أراح ظهره على المقعد، فجاءت أمى تسير بحرص حتى لا تتساقط الأشياء الكثيرة التى تحملها، فانتفض من مكانه ليأخذ بيدها ويساعدها فشكرته وجلسنا جميعا، نتسامر لأكثر من ثلاث ساعات حتى استأذن ووعدنى بالاتصال بى يوميًا للإطمئنان عليَّ وأوصانى و أوصى أمى أن نهاتفه إن أردنا أى شئ وعندما تحين الولادة.

وكانت تلك الليلة من أكثر الليالى صفاءً وسعادةً، وضممت يدى إلى صدرى وحاولت أن أدّعى القبض على تلك الأمسية لأمنعها من الهرب والتسرب مع تيار الوقت. ابتسمت كثيرا ليلتها وأنا أتذكر كل تفصيلة، ثم استسلمت لنوم لذيذ ونمت يومها بعمق كطفل وديع.

***

صدق أيمن وعده، ولم يمر يوم دون اتصاله واطمئنانه على أحوالى، عشت تلك الفترة مشاعر اختبرتها للمرة الأولى، وكأننى مراهقة تقع فى الغرام لأول مرة، بحمية العشق الأول،

وبشرارة الحب الحالم، بلا توقعات، بلا انتظار للقادم، فقط من أجل الحب، أخجلنى هذا الشعور، فأنا على وشك أن أصير أما، ومازلت معقودة بحبل يربطنى بزوج مجذوب، ولكننى لم أشعر بالذنب ولو للحظة و كلما قفزت صورته وهو مع تلك المومس فى فراشى، ثم ركله لى ومحاولته قتلى، أنفض تلك الصور بحزم وأستقوى بها لأتجلد و أثابر وألا أفسد على نفسى أيام السعادة التى أقضيها حتى و لو سعادة مؤقتة. ورغم سعادتى لم أتمكن من منع نفسى من التساؤل عما سيحدث فى الغد، هل سأصير أنا و أيمن وابنتى سويا لنبنى الأسرة التى فشلت فى إنشائها مع خالد ؟ وهل ستكون الفرصة سانحة أمامى لأسترد ما ضيعته من عيشة دافئة و حنونة مع أيمن فى الماضى؟ وهل سيقبل بتربية فتاة لم ينجبها؟

عجيب أمر الإنسان، يصرعلى التمسك باللحظة لما تحمله من سعادة حتى وهو مدرك أنها لن تدوم، ربما لحاجته أن يشعر بها، وربما تعلقه بالأمانى الزائفة هو ما يعينه على الحياة حينما لم يتبق سبباً للاستمرارية سوى أن أجله لم يحن بعد.

***

الأحلام المُحرَّمة

داهمتنـى آلام الوضـع فى منتصـف الليـل، اسـتيقظت أصرخ ففزعـت أمـى التـى انكمشـت سـاعات نومهـا كلـما اقـترب موعـدى، اتصلـت بأيمـن عـلى الفـور وكانـت قـد أعـدت كل مـا سـنحتاج إليـه منـذ الشـهر السـابق .

أرسـل أيمـن إلينـا سائقه الـذى وصـل بسرعـة أذهلـت أمـى، أمـا أنـا فلـم أكـن فى حالـة تجعلنـى أصب تركيـزى عـلى مايحدث حـولى، يكفـى النـزاع الـذى كنت غارقـة فيه.أوصلتنـا السيارة إلى مستشـفى خـاص كبير و يبـدو أن أيمن قد قـام بالترتيبات اللازمة نيابـة عنـا، فبمجـرد وصولنـا أدخلونـى الغرفـة المُعَـدَّة مسـبقاً لى وكان أيمـن هنـاك فى انتظارنـا، محـاولا الحفـاظ عـلى ابتسـامته الهادئـة و لكـن القلـق تـسرب مـن عينيـه. بعـد فـترة و خـلال متابعـة الطبيب لى، بيـن لحظات تكسرت فيهـا عظامـى و لحظات تمكنـت فيهـا مـن التنفس بسلاسـة، دخـل أيمـن ليطمئننـى، وضـع

يـده اليمنـى عـلى جبينـى، نظـر فى عينـى فاخترقهـا حتـى شـعرت بأننـى نُزِعـت مـن الواقـع وذبـت داخـل حلـم هـادئ، شـعرت بالخَـدَر يـسرى فى جميـع أنحـاء جسـدى وكأن نظراتـه اخترقتنـى و امتزجـت مـع ذرات جسـدى كلـه فَنَقَلـت إليَّ أثـراً مـن عينيـه فأسـكنتنى وأخمـدت النـزاع بداخـلى.

لحظـات وعـدت إلى الواقـع وكان أيمـن فى طريقـه نحـو البـاب، وكنـت عـلى وشـك أن أناديـه فاسـتدار كأنـه قـرأ مايـدور فى خلـدى وقـال: «لاتقلقـلى، سـتكون ولادة يسـيرة، وسـتلدين «فـرح» بصحـة ممتـازة، أراك بعـد قليـل.» و أغلـق خلفـه البـاب وعـادت إليَّ الآلام فأطلقـت لنفسـى العنـان و صرخـت فارتجـت أركان الحجـرة بعنـف حتـى جـاءت «فـرح».

«روحـان فى جسـد، و انتـزاع عظـام و لحـم فى كبـد، روح تنسـل مـن الغمـد، وعجلـة جديـدة تـدار فى قلـب الحيـاة فى عَمَـد، إنهـا معجـزة اسـتحضار روح مـن بـرزخ حُجِـب، لتكابـد بـين الرُحـى حتـى تسـترد الذاكـرة التـى سُـلِبَت لحظـة الانتـزاع، لتعـود مـن جديـد حُـرة بـلا أغـلال أو كمـد»

أطلَّـت عـليَّ بوجهـا الصغـير الـوردى، مغمضـة العينـين، تمـص إبهامهـا بنهـم، يلفهـا غطاءهـا بإحـكام، صغـيرة للغايـة جعلتنـى أبتسـم وانتابتنـى سـعادة مـن نـوع جديـد أنسـتنى الجميـع، لا أفكـر بشـئ أو بأحـد، نسـيت الكـون و مافيـه مـن قتامـة و ألم، فقـط «فـرح»

بين أحضاني تمنحني الهناء و البراءة، هذا الحب الفطري بلا مصالح، بلامؤامرات بلا كذب و تدليس و تدنيس للإنسانية و المعاني السامية، الحب الطاهر قبل أن يُشوَّه ليُخرِج علينا جنيناً متعدد العاهات يطلقون عليه «حبا». أرضعتها وشعرت بالرضا لرضاها، وشعرت أن اسم «فرح» يناسبها أكثر من أي شيء في الكون كله.

خرجت من المستشفى وعدت إلى منزل أمي كل هذا وأيمن لم يتركني وما أن وطأت قدماي المنزل حتى قوبلت بمهرجان من الهدايا والبالونات، نظرت لأيمن فوجدت نافذتيه المشرقتين تراقبانني بترقب وسعادة فابتسمت وشكرته بعيني ودخلنا لنُعرِّف فرح على بيتها الجديد.

نفس البيت الذي ولدْت وتربيت فيه، ولكن الحظ سيختلف تلك المرة، صحيح كلتانا بُلينا بآباء ملاعين، ولكن أنت يا فرح، تمكلين ما لم أملكه يوماً وعشت عمري أشتاق إليه، تملكين أما تعشقك وستدافع عنك، تملكين جدة تبدّل حالها، وتملكين أبا لم ينجبك، ولكنه بشرني بك و منحك اسمك، أتمنى أن يكون لك نصيب هائل فيه.

هاتفت أمي أخي لتزف إليه الخبر الذي كان سعيداً لنا، محزناً له عندما علم بأنني أنجبت فتاة، وكان قد تضاعف

بداخله العداء لى عندما علم بدعوى الطلاق التى رفعتها على خالد دون إطلاعه على الأمر.

جاء على مضض بعد أن سمعت أمى تعنفه وتتشاجر معه وعرفت أنه لايريد أن يأتى، وليته تمسك بموقفه، فقد حضر فى الموعد المُتَفق عليه بعد معاناة مع أمى، جاء بمفرده دون أى من أفراد أسرته الصغيرة، وكان أيمن قد سبقه فى الوصول هو وأخته التى كنت أراها للمرة الثانية، فى البداية لم يتذكر أخى أيمن وظن أن صديقتى تزورنى مع زوجها مما استفزه ولكنه كتم غيظه، ولكن عندما عرفته أمى بضيوفنا الأعزاء اشتاط غيظا وانفجر فى الجميع، صَبّ فى البداية جم غضبه على أمى المسكينة زاعقا:

«كيف تسمحين لأقدام رجل غريب أن تطأ بيت أبى الطاهر!! أبعد موت الرجل تحيلون البيت إلى كرخانة!!»

فصفعته أمى لأول مرة وسط ذهولنا و قالت:

«أسكت الله حسك!!أتصف بيتا أعيش فيه بالماخور!!! هذا ليس بيت أبيك فقط، بل بيتى بنيته بأعصابى ودفعت الثمن سنوات من عمرى وذل تحملته ليظل قائماً، وفى النهاية أنجبت خنزيرا يتهم أمه وأخته فى شرفهما!!!»

فرد هائجا:

«إن كان لكما فى هذا البيت فلى أكثر مما تملكان»

«هذا ماتظنه أيها الأحمق، ما لا يعرفه أحد أن هذا البيت بيتى أنا، باسمى أنا، بيت أبى كتبه لى منذ زمن وليس بيت أبيك، أبيك كان يعيش معنا بما ينفقه عليكما، لذلك ليس لك شيئ فيه مادمت حية»

فقال: »مادمتِ حية»

حاول أيمن تهدئته:

«لايجوز أن تتطاول على أمك هكذا، أمك وأختك لم ترتكبا جرما، والله وحده من يحاسب و ليس البشر فلا ترمى من أنجبتك بالباطل فتكون من الملعونين»

«من أنت لتتحدث معى؟! من أنت لتتحدث عن الجرم والحساب، أنت بالتأكيد من أغويت هذه الساقطة لتهدم بيتها وتترك زوجها صاحب الفضل فى سترها وإزالة عبئها من فوق كاهلنا»

غلى الدم فى عروق أيمن، ونفرت عروق جبهته ورقبته واحتد أكثر:

«أختك ليست ساقطة وليست عبئاً، أنت لم تصرف عليها مليما ولم تقم على أمرها كما أمرك الله!! فيجب أن تخجل من نفسك وتستغفر الله على القنابل التى قذفتها فى وجهها الآن؛ لأن حسابك سيكون عسيرا!!»

«جذب أخى أيمن من قميصه،فأنتفض أيمن و أمسك رسغيه فأحمر وجه أخى من الألم وبدا كأنه على وشك أن يسلم روحه لبارئه،وكأنه رجل خارق ذو قوة تفوق قدرة البشر على الاحتمال،أطرق الجميع يشاهدون المشهد العجيب وكأن مصارعين يقفان على حلبة المنافسة،وأكثر ما أثار دهشتى هو هدوء أخته الشديد وعدم ظهور أى بادرة لإنفعال على قسمات وجهها الجميل،وكأنها تعلم مسبقا نتيجة نزاع الديوك هذا.»

بالفعل،ترك أيمن أخى، ورحل الأخير صافقا الباب خلفه بضراوة، وكأنه ينتقم منه عندما فشل فى الانتقام من أيمن. جلس أيمن بهدوء يعتذر عن تسببه فى اندلاع المشكلة، فتنهدت أمى وقالت:

«لاعليك،هو من البداية لم يكن يرغب فى المجيء وكنت أنت الشماعة التى علق عليها حنقه و السواد القابع فى قلبه، هو الإرث الذى تركه لنا أبيه،قطعة منه تسيرعلى الأرض لتستمر اللعنة معنا ما حيينا»

نظر إليَّ أيمن وكأنه استشعر ما بى وقال:

«لاتجزعى يا عاليا، لن يستطيع أن يمسسك بسوء مادمت حيا، حتى و إن توفانى الله، سأترك لك حافظا من أى شخص و من أى شئ»

لم أفهم كلامه ولكنى صدقته بكل حواسى وجوارحى، لم أحاول أن أطلب تفسيرا فقد اعتدت معه على الغموض وعدم التفسير، يفعل و يفى وهذا يكفى؛ لذلك لم أُحَمِّل نفسى عبء التساؤل الآن، فما حدث أعيانى بما يكفى.

حاول أيمن أن يعيد البهجة للأجواء، ولأول مرة أكتشف عذوبة صوته وملاحته، استخدم المنضدة الخشبية كطبلة وبدأ ينقر عليها وهو يتغنى بكلمات جعلتنا نطير معها و نرددها بعده:

يا مَليحاً قَد تَجلّى فيهِ أَهلُ الحَيّ هاموا
سِيَمـا لَمّا تَحـلّى وَحَـلا فيهِ الغَـرامُ
قُلت لَمّا لاحَ يجلى وَانجـلى عَنّي الظَلامُ
هَكَـذا العَيشُ وَإِلّا فَعَلى العَيش السَلامُ
حَبَّذا لَمّا سَقـاني صَفوَ كَأسِ الحُبِّ صِرفا
وَحَبـاني بِالتَـداني وَانثَنى جيداً وَعطفا
مُبعدٌ في القَلبِ حَلا وَجَلى عَنّي الظَلام
هَكَـذا العَيش وَإِلا فَعَلى العَيشِ السَلام

وكأنه نهراً عذباً جرى على أفئدتنا فغسلها مما تحمله من ضغائن وهموم، ورغم بداية الليلة المريعة إلا أنها انتهت أروع مما تخيلت وتمنيت فى أقصى أحلامى حلاوة و متعة.

***

بدأت الحرب الشرسة، وخرج الوحش من كهفه أكثر وحشية وقسوة.

هاتفنى أشرف ليحذرنى مما ينوى خالد على فعله، وأن سكونه طوال الفترة الماضية ليس بالشئ العادى، وأنه حتما يشحذ أسلحته ليهجم بضراوة وأنه إن كان يبدو لنا جميعا راغباً عن الاعتراف بفرح ويود التخلص منها خاصة بعد أن جاءت فتاة، فالانتقام يستفحل بداخله يوما بعد يوم ولن يهدأ له بال حتى يسترد التحكم فى دفة الأحداث، فهو لا يريد أن يُجبَرَ على التخلى، بل يتخلى هو عندما يشاء وبدون أن تُمَسّ صورته أمام الناس وبدون أى خسائر مادية، فاحذرى يا عاليا ولا تتوسمى فيه ذرة خير.

أصابتنى تلك المكالمة بالتوتر، حتى أننى فى بعض الأوقات أضع فرح أمامى وأتأملها طويلا ثم أضمها إلىَّ وأبكى بحرقة أم ملتاعة. هاتفت أيمن ونقلت له ما دار، وطمأننى أن المحامى القائم على القضية من أكثر المحامين حنكة وثقة، فهو لم يوكله

لأنـه متمـرس فقـط، بـل لأنـه كان صديقـا مقربـا لوالـده، لـذا يتولى القضيـة باهتـمام و تفـان.

جـاء اليـوم المنتظـر، وتفاجـأت بـأشرف عندمـا علمـت بأنـه قـد أمـد المحامـى بملـف خالـد مـن المصحـة التـى كان يعالـج فيهـا وبصـور لى بعـد أن تعرضـت لـلأذى البدنـى منـه كان قـد التقطهـا فـور وصـولى إلى المستشـفى وأخفاهـا لتلـك اللحظـة.

لعـب أشرف دوراً محوريـاً ؛ وعلمـت بعـد انتهـاء القضيـة لصالحـى؛ بإجبـار خالـد عـلى التكفـل بمصاريـف ابنتـه مـع عـدم التعـرض لى ولهـا، بـأن كل شـئ تـم وفقـاً لخطـة موضوعـة ومُتفـق عليهـا بـين أشرف وأيمـن والمحامـى عندمـا تقابـلا لأول مـرة بمكتـب الأخـير.

وبالطبـع عـرَّض أشرف نفسـه لغضـب خالـد وانتقامـه وانتهـى أى رابـط يربطهـما للأبـد.

إذن هـذا هـو الشـعور بالخـلاص. لم أعتـد هـذا الإحسـاس وعندمـا ظننـت خطـأً أننـى وجدتـه كنـت أزج بنفسـى فى سـجن مزخـرف لا أكثـر.

حاولـت الاسـتمتاع بالهـدوء الـذى خيـم عـلى الأجـواء بعـد انتهـاء تلـك الغمـة، ولكـن والـدة خالـد لم تـدع أمـى فى حالهـا، وأمطرتهـا بالمكالمـات، تـارة تحـاول استمالتهـا واسـتعطافها وتناشـد

قلب الأم داخلها حتى تسمح لخالد برؤية ابنته رغم حكم المحكمة بعدم اقترابه منا، وتارة تهدد وتنهال بالسباب والوعيد، حاولت أمي جاهدة ألا تطلعني على مايحدث حتى لايتملك القلق مني و لكنها لم تستطع، لأنها بدورها لم تكن مطمئنة وكنت أترك فرح معها وأنا في العمل فتملكها ذلك الهاجس الذي جعلها تتوجس من أي صوت يقترب من باب المنزل ولاسيما إن كان جرس الباب، وأخذت تتخيل أشخاصا يداهمونها في وضح النهار ليختطفوا حفيدتها من بين أحضانها ، فما كان منها إلا أن أفضت إليَّ بما في سريرتها بعد إلحاح.

ولم يعد لنا أحد سوى أيمن وأشرف وبالطبع القلب اختار أيمن دون تفكير، فطلبت مقابلته لأتحدث معه في هذا الشأن ونفسي توسوس لي « لا ضير من أن تفتقديه وتلتقي به لتشبعي عينيك منه».

ولم يتأخر في تلبية النداء كما عودني. فقدت الكثير من الوزن الذي كنت قد أكتسبته خلال أشهر الحمل، واستعدت رشاقتي نوعا ما، فمررت في طريق عودتي من العمل على متجر الملابس الذي اعتدت على التبضع منه، وبالفعل كان هناك فستانا من الشيفون الناعم أرجواني اللون، وقعت في غرامه من النظرة الأولى.

تعطرت بعطر نسيت أننى اقتنيته، وارتديت الفستان الجديد، وركضت كالطفلة لأمى كى أسمع منها كلمات الإطراء والاستحسان حتى يطمئن قلبى بأننى أبدو فى الهيئة التى أتمناها، فاليوم أريد لأيمن أن يُفتن فيَّ، أريد أن أربحه لما تبقى لى من العمر، أريده أن يدفئ سريرى و أن يوقظنى بصوته الرخيم الحنون، وأن يسحرنى بغنائه القادم من زمن غير الزمن، أريد أيمن كله ودائما، فلم أعد أكتفى برؤيته المتقطعة حتى سماع صوته يوميًا ما عاد يرضينى.

شاهدت عينيه وهما يتجولان فىّ بإعجاب أحمرّت له وجنتاى خجلاً، ولكنى أعترف بأنه أعادنى صبية من جديد، أحببت ذلك الشعور وتمنيت أن يستمر حتى تقوم الساعة. تحدثنا عن ابنتى وعن التهديدات التى نتعرض لها، وطمأننى بأنه تحدث مع المحامى وقد أكد له أنهم ليس بيدهم شئ، خصوصا بعد حكم المحكمة والاتهامات التى سيتعرضون لها لو تجرأوا على فعل أى شئ من هذا القبيل. وقررت أن أفاتحه فى الأمر الذى عكفت عليه طوال الأسابيع الماضية ولا أعلم من أين جاءت لى الجرأة حتى أبدأ معه ذلك الحديث.

«أيمن، أريد أن أسألك شيئا وأتمنى ألا تسئ فهمى، أليس من الأفضل أن أتزوج رجلا يحمينى و يحمى ابنتى؟ وهل سيصبح من حق خالد أن يحرمنى من ابنتى إن تزوجت؟»

وجـم فجـأة، وتبدلـت ملامحـه، رأيـت وجهـه يحتقـن وهـو يجاهـد حتـى يجيبنـى:

«بعـد الحكـم القضائـى ليس مـن حقـه أى شـئ، أعتقـد ذلـك، كـما أن الأولويـة ؛ فى الحالـة النـزاع، لوالدتـك حسـب معلوماتـى الطفيفـة . و لكـن مـن هـو هـذا الرجـل الـذى جعلـك تفكريـن فى الـزواج و أنـت لم تبرأيـن بعـد مـن جـراح الزيجـة الأولى!»

أجبته دون تردد: أنت! أمازلت تتساءل؟!

«انتفـض وجسـده يرتعـش بشـكل مفـزع، و قـال: أنـا! لا أسـتطيع، لا يمكـن!»

«لم أعـرف مـاذا أقـول أو كيـف أتـصرف، تفوقـت الصدمـة علـيَّ فألجمتنـى وبعـد أن كنـت مهـرة حـرة تتحـرك نحـو مـن تهـوى، أُرديـت قتيلـة برصـاص الكلـمات!»

نظـرت إليـه بعينـين دامعتـين، أسـتجديه طمعـا فى أى تفسـير، طـال الانتظـار ولم يعقـب، اسـتأذن هاربـا ولم يعطنـى فرصـة لأسـتوقفه، خـرج و تهشـمت كرامتـى فـوق صخـرة إعراضـه.

بقيـت المـرارة فى حلقـى أيامـا كثيرة وارتفعـت درجـة حرارتـى، بقيـت طريحـة الفـراش، أمـى تسـهر عـلى خدمتـى وترعـى «فـرح» التـى توقفـت عـن إرضاعهـا فى تلـك الفـترة، وعندمـا بـدأت أتعـافى وأسـتعيد صحتـى صرخ جـرس البـاب فى صبـاح يـوم باكـر

وأمـى منهمكـة فى إعـداد الفطـور وهـى تستمتع لصـوت فـيروز المغـرّد، فذهبـت عـلى مضـض لأفتـح البـاب وإذا بهـا ضيفـة غـير متوقعـة عـلى الإطـلاق.

***

اجتهـدت حتـى ترسـم تلـك البسـمة الهادئـة عـلى شـفتيها المكتنزتـين، ولكنهـا لم تتمكـن مـن إخفـاء توترهـا. وقفـت ذاهلـة لا تتكلـم ولا أدعهـا تدخـل، وظلـت بدورهـا واقفـة صابـرة فى هـدوء تاركـة لى المجـال كـى أسـتوعب مايحـدث، ثـم عـدت مـن غيبوبـة الصدمـة المؤقتـة التـى انتابتنـى واعتـذرت منهـا ودعوتهـا للدخـول.

أمسكت بتلابيب الحوار وقررت أن تقوده:

«أعتـذر عـن حضـورى المفاجـئ، ولكـن باختصـار وبمنتهـى الصـدق رأيـت مـن واجبـى أن أقـوم بتلـك الزيـارة بعـد أن روى لى أيمـن ماحـدث بينكـما، إيمانـا منـى بحقـك فى تفسـير لمـا حـدث و لـولا إنـه لم يـروِ لى شيئاً قبـل الأمـس لكنـت قـد أتيـت قبـل الآن. لا تدعـى الشـك يصيـب إحساسـك، فأيمـن يحبـك بالفعـل وليـس الأمـر حديـث الوقـوع فهـو متيـم بـك منـذ الجامعـة، ولكنـك لم تشـعرى بـه قـط وبعـد وصـول نبـأ زواجـك إليـه وقـع فريسـة لإكتئـاب شـديد ظـل ينهـش فيـه عامـا كامـلا وقبـل انقضـاء

ذلك العام تبدّلت أحواله وحاول أن يُخرِج نفسه من الدوامة التى غرق فيها وفاجأنا فى أحد الأيام بقرار سفره إلى المغرب ولم يستطع أى منا أن يفهم منه السبب أو أن يقنعه بمرافقته وتركناه يذهب أملاً فى شفاء يحمله السفر لنفسه المكلومة، وظل هناك عاما آخر لانعرف عنه إلا ما يختار هو أن يُطلِعنا عليه وباختصار شديد لذلك أستطيع القول بكل صدق أننا لم نعرف شيئا فعليًا عنه.

وبعد انتهاء عام الغربة الثانى والذى تلا عام الاكتئاب، وجدناه أمامنا فجأة دون أن يخبرنا بقرار عودته، عاد أكثر بشاشة وهدوءا، غشاه سلاما لم نفهمه يوما رغم سعادتنا بتبدل أحواله إلى الأفضل، لم يعد حانقاً على أحد، بات يعشق الهدوء أكثر من ذى قبل و يكره الأصوات الصاخبة، صار يمارس التأمل بانتظام، استطاع أن يسحر كل من يعمل معه، فأطاعه الجميع وأتقنوا عملهم.

قالت أمى يومًا:

«أيمن عاد وجلب معه سحرا يشع من عينيه يروض له الجميع حتى أننى أراه فى منامى كثيراً يسير وسط الغابات وتحيط به الأسود من كل اتجاه وبمجرد أن يشير إليها تجلس حوله أو تسير خلفه فى خشوع وكأنه ربها الذى تعبده»

وبعد محاولات مُضنية من قِبَلى مع الكثير من الإلحاح والضغط أسرَّ إلىَّ بانه قد ذاق حلاوة التصوف وقرر تطهير نفسه من كل مشاعر الدنيا المدنسة والتى كانت تجذبه لأسفل وأنه أخذ العهد على يد أحد كبار الطرق الصوفيه وعكف عاما كاملا يتعلم و يتأمل و أنه يذهب للحضرة من وقت لآخر.

فى الحقيقة لم أستوعب كلامه واعتبرتها تجربه أثْرت روحه وأسقته دواءً رتق قرح روحه و أعانه على تخطى ماكان يمر به وعجزنا جميعا عن مساعدته على تجاوزه، ولم أعر للأمر اهتماما كبيرا .

وبدأت محاولات أمى لإقناعه بالزواج والعجيب أنه لم يعد يقاوم كما كان يفعل من قبل، وقام بالفعل بخطبة فتاة جميلة تدعى «نغم» من عائلة محترمة جدا، كانوا جيرتنا الطيبة طوال سنوات الطفولة، ثم سافروا إلى لندن بسبب ظروف عمل والدها وكانوا قد عادوا وقتها حديثا من الخارج بعدما أنهت دراستها الجامعية. تم الزواج سريعا بدون مشاكل أو عراقيل، ولكن بعد الزواج اكتشفنا المشكلة التى جعلت أيمن يفزع عندما تحدثت معه فى أمر الزواج.

«شعرت بالخزى يغزونى، يخترق أصابع أقدامى ويسير لأعلى ليصيبنى بالخدر كلما تقدم، الخجل أفقدنى النطق تماما فاكتفيت بهزة طفيفة من رأسى»

توقفت لتبتلع ريقها واستطردت:

«ليس من المفترض أن أفصح لك عن ذلك الأمر، ولكنى أعلم جيدا أنك لست كأى شخص، كما أعرف جيدا أنك تجدين في أيمن الملاذ والأمان رغم أننى أشك فى حبك له، ولكن منذ أن أحضرك إلى المنزل وبدأت أشعر بالتوتر لأننى أعلم جيدا إلام سيؤول الأمر، ولم أشأ أن تتأذين أو يتأذى أخى مجددا، لذلك سأطلعك على السبب «

بعد عودته هو و زوجته من أجازة «شهر العسل» المزعوم، خيم الصمت عليهما، وشعرنا جميعا بأن هناك أمرا غير مريح يحدث بينهما، فى الأول اعتقدنا أن ثمة خلاف قد جرى بينهما ولكننا سرعان ما نفضنا تلك الفكرة حيث أنه لم يمر على زواجهما أكثر من عشرة أيام وأن حالة الوجوم تلك تخطت حتى حدود المبالغة واكتست ملامحهما بمزيج من البؤس والخجل.

حاولت أن أستدرج أيمن فى الحديث، ولكنه لم يشكو منها ولم يعب فيها بالعكس ظل يمدح فيها طويلا ولما يئست منه وجهت سلاحى تجاهها، ولكنها قامت بنفس الشئ. وفجأة و بدون سابق إنذار ورد إلينا خبر انفصالهما، ولا أحتاج أن أطيل عليك فى وصف إحساس الخيبة الذى أصابنا وكيف صعق والداى وكيف كان شعور قلة الحظ مسيطر عليهما حيث أن زوجى كان قد تُوفى منذ عامين وترك لى ثلاثة أبناء والكثير من

الأسى. اختفى وقتها أيمن وأغلق هاتفه ولم نتمكن من الوصول إليه و قررت أن أذهب إلى طليقته لأستفهم منها عما جرى.

فى البداية خشيت ألا يكون مرحبا بى وأن يكون أمرا بالغ السوء قد حدث بينهما ولكنها قابلتنى بالترحاب والابتسام، صحيح كانت ابتسامة منكسرة ولكنها أفضل مما كنت أتوقع، وعندما اختليت بها أسرَّت إليَّ بالسبب:

«أيمن لم يلمسنى يا «سما» أيمن لا يريد أن يلمسنى»

«ماذا تقصدين؟؟ أيشكو من خطب ما؟!»

«هكذا ظننت فى البداية و لكنه إرضاء لى ذهب إلى الطبيب الذى بدوره أكد أنه معافى تماما و لكن الأمر نفسى، وعندما حاولت ان أستفهم، نقلت لى عن أيمن بأنه قال لها:

«لقد قطعت على نفسى عهدا وزهدت كل شئ وحقا لن أستطيع أن ألمسك أو ألمس أى أمرأة مهما كنت متيما بها»

«ولم أفهم يا «سما»، حاولت لكننى لم أستطع وحاول أن يفهمنى قائلا:

«لقد ظننت أنه من الممكن أن أعيش حياة طبيعية بمفهوم الناس، ولكنه زارنى فى منامى ومن يومها وأنا لا أستطيع، أنت إنسانة طيبة المعدن وأنا لن أظلمك معى، سأمنحك

حريتـك و حقوقـك كاملـة، ولكننـى رفضـت يـا «سـما» واتفقنـا عـلى الطـلاق بهـدوء وتركنـا بعضنـا بـكل احـترام.»

خرجـت يومهـا وبداخلى نـيران تأكلنـى مـن الداخـل، لم أعرف مـاذا أفعـل وبمجـرد أن دخلـت سيارتـى، أطلقـت لنفسـى العنـان و أخـذت أصرخ حتـى توقـف المـارة مشـدوهين.

انتظـرت ظهـوره عـلى أحـر مـن الجمـر ولم أطلـع والـدى عـلى أى شـئ، وظهـر فجـأة كـما اختفـى فجـأة، دخـل علينـا بمنتهـى الهـدوء، تعلـو الابتسـامة وجهـه وكأنـه كان فى أجـازة قصـيرة، كأن شـيئا لم يكـن.

أول مـا رأيتـه أمسـكت رسـغه بعنـف وكأنـه مجرمـا أمسـك متلبسـا بجرمـه، سـحبته خلفـى إلى غرفتـى وأغلقتهـا بإحـكام. جلـس عـلى سريـرى و هـو ينظـر إلَيَّ فى حنـو مسـتفز ووقفـت أصرخ فيـه و ألعنـه وألعـن أفعالـه، فـرد بهـدوء:

«أرى أنـك قـد تحدثـت إلى «نغـم». لم أسـتطع أن أظلمهـا يا»سـما» فهـى لاتسـتحق هـذا»

«إذن لمـاذا بـدأت الأمـر؟؟ لمـاذا طاوعـت أمـك؟؟ ومـاذا تقصد بأنـك لا تستطيع؟؟؟ هل سـترهبن؟!

«لمـاذا؟ لأننـى ظننـت أنـه ممكـن. ولا أسـتطيع لأننـى لا أسـتطيع ولـن أقـوم بتفسـير هـذا الأمـر لأننـى أعجـز عـن ذلـك، لكنـى

زهدت الكثير لذلك سأكون راهبا و لكن بطريقتى، وأرجوك اهدأى، لو لم أطاوع أمك هل كنتما ستكفان عن الإلحاح وعن محاولاتكما التى لا تنتهى؟؟ بالطبع لا. نعم «نغم» ظلمت وستعتقدين أننى اتخذتها كبشا أفتدى به نفسى ولكننى لم أقصد أن يحدث كل هذا، فى الواقع لم أظن أنه سيحدث، ولكن تلك التجربة ستجعل أمك تكف عن الدفع بى نحو أمور لن أتحملها وستعتزلين أنت الأخرى وظيفتك فى الزج بى إلى القفص الذهبى كما تطلقين عليه. انتهى الأمر يا «سما»، اتركونى فى عالمى هادئ البال ولا تجعلونى أؤذى شخصا آخر»

أمسك بيديىَّ و قربنى إليه ثم قبلهما وتركنى، ومنذ ذلك اليوم وهو راهب فى محرابه السرى يا عاليا ولن يتمكن من الزواج بك أو بغيرك، هو يريد أن يكون دوما بجانبك ومعك ويحبك حبه العذرى ولن يستطيع أن يمنحك أكثر من ذلك و لن يقبل أن يتزوجك مع إيقاف التنفيذ، أعرف ذلك لأنه قال لى: «الفراق لا يعنينى ما دامت تسكن القلب، فأنا قريب منها أكثر من نفسها، أجرى فى دمائها، لا أحتاج إلى أكثر من هذا ولا أستطيع أن أمنحها ماتريد»

لذلك لا أريدك أن تقومى ببناء قلاعاً من رمال، إما أن تتقبلين وجوده بهذا الشكل أو تختفى من حياته للأبد، هو بالطبع لا يعلم أننى قادمة إليك اليوم وإن عرف بالأمر

فسيقاطعنى للأبد، كما أريدك أن تصارحين نفسك «هل تحبينه حقا؟!» ،فقاطعتها:

«بالطبع أحبه،لأول مرة فى حياتى أشعر بهذا اليقين، لقد أخطات فى حق نفسى وفى حقه عندما تجاهلت شعوره تجاهى قديما، ومضيت قدما نحو نهايتى، والآن القدر منحنى فرصة جديدة لأصلح الأمر، والآن وبعد كل الذى أطلعتنى عليه ماذا تتوقعين منى؟؟ وماذا يتوقع هو منى أن أفعل إن كنت سأدَّعى جهلى بالأمر؟ أنا أريده يا «سما»، حقا أريده ولكنك الآن قد أغلقت فى وجهى كل الأبواب.

«وبحثت عن نفسى فى عروقك فلم أجد سوى الوهم والضياع، وتاهت نفسى توهة أخرى»

عاليا

«إنه العهد الذى أخذته على نفسى و سأوفى به ماحييت، فلا تلومييننى على أمر لاتفهميه»

أيمن

.

***

انقطع صوته الذى كان يروى جفاف روحى ويتساقط على روحى نداه كل صباح ليطفئ نار الشوق التى تستعر كل ليلة بين خلجاتى. اختفت صورته التى كانت تزورنى من حين لآخر، لتؤنس وحدتى و تملأ الفراغ الأسود الذى يحيط بى من كل اتجاه كأنه من يتحكم فى كل شئ، يأمرها أن تذهب فتطيع.

اختفى السلوان عنى واختفت معه الأمنيات فى غد أفضل، لم تكف أمى عن السؤال عنه، ولم أستطع أنا أن أجيب التزمت بادّعاء الجهل وتماديت فى تجاهل الأمر واتهامها بالمبالغة وصممت على أنها تعطى الأمر أهمية أكبر مما يستحق متعللة بأنه قام بأكثر مما يجب ومن الذوق أن نتركه يستريح من مشاكلنا ونطلق سراحه قليلا فهو أيضا لديه حياته.

نظرت أمى إليَّ فى تشكك، وبالتأكيد لم تقتنع بكلمة مما أقول ولكن هذا أفضل، فأقصى ما سيذهب إليه عقلها بها هو أننا ربما تشاجرنا أو أن هناك امرأة أخرى فى حياته ،أو شئ من هذا القبيل وفى كل الحالات هذا أفضل من الحقيقة التى لن أستطيع أن أبوح إليها بها لحساسيتها وخصوصيتها.

مقتّه واجتويت كل ذكرى جمعت بيننا، لماذا ظل بجانبى إذا كان ينوى الاختفاء، أم أنه لم يتوقع خطواتى نحوه ولم يتخيل أنه سيجبر يوما على الرحيل، لماذا لم يفسر لى، لماذا سلبنى حق الاختيار، كيف استطاع أن ينزح عنى، ألا يحبنى؟ ألم أكن سببا

فى زهده النساء ،والآن عدت إليه أرجوه أن يظل بجوارى ولا يتنحى عن دوره فى حياتى، لم أعد أعرف إن كنت جانية أم مجنياً عليَّ أم أن جميعنا جناة ومظلومين ولكن الأمر عبارة عن تبادل للأدوار لا يوجد أفضلية لشخص على آخر، نحن نفس الشخص فى صور متباينة.

قررت الصمود وعدم الاستسلام لليأس، لكننى أوفق يوماً وأخفق أياماً، وعاد أخى لمحاولاته الدنيئة وحاول أن يطعن قضائيا فى صحة الأوراق التى تمتلكها أمى والتى تثبت ملكيتها للمنزل، وعادت والدة خالد فى الضغط من جديد، وحاولت الاستعانة ب»أشرف» وحاول طمأنتى واقترح علىَّ أن أحرر محضرا ضدهم حتى إذا قرروا القيام بأية حماقة وإذا حدث سوء لأى منا «لا قدر الله» توجه الاتهامات إليهم مباشرة وتلك المرة سيكون مصيرهم الحبس.

وبالفعل ذهبنا لنحرر المحضر وتم استدعاء خالد ووالدته، وكانت تلك أول مرة أراه فيها منذ الحادث، لم يتغير فيه شئ، مازال محتفظا برونقه واهتمامه بمظهره وأسلوبه المتصّنع أمام الناس، ولكن نظرته باتت أكثر حدة، لم يعد يستطيع التحكم فى الشرر المتطاير منها، ينسكب منها السخط بغزارة.

أقبل علينا بعروق جبهته النافرة وكأن الدماء التى تسرى فيها وصلت حد الغليان وعندما رأى صديقه القديم معنا

توقف فجأة، وضم يديه المقبوضة وألصقها بفخديه وكأنه يجاهد نفسه و يحاول السيطرة عليها.

أرعبنى مظهره، وشعرت بالاختناق وكأنه جاء ليمتص كل الهواء العالق فى الغرفة، وكأن ملك الموت قد هل علينا ليسلبنا الحياة، نظر إلى «فرح» نظرة زائغة، حاول أن يدير وجهه عنها، لكنه لم يستطع وظل محملقا فيها وكأنها كائن عجيب يظهر لأول مرة على الأرض. ضممتها إلى صدرى أكثر لأحميها من نظراته الحارقة، والارتياع يغزونى كالبرودة يجمد أطرافى ببطئ وكأنه يتلذذ بتعذيبى.

«حتى نظراتك يا خالد مسمومة وكأن الموت يسير على الأرض بين الناس فى جسد رجل.»

تمت الإجراءات سريعا وكلما مر الوقت ازداد التوتر وشعرت بانقباضة فى صدرى وأحسست بأن سوءًا سيقع.

مرت الأيام التالية فى هدوء مخيف، هدوء منتفخ بالقلق و التربص، حرصت على الاطمئنان على أشرف من حين لآخر، فارتياعى من أن يدفع حياته ثمنا لوقفته معى ظل شبحا يطاردنى فى صحوى ونومى.

انغمس أيمن فى الغياب الذى يتقنه، ولم أجرؤ على الاتصال به، كم أردت ذلك! ولكنى لم أستطع ولم أعرف ماذا أقول

ومـن أيـن أبـدأ، فاستسـلمت وأسـلمت نفسـى لذكـراه التـى عـادت تزورنـى فى فراشـى كل ليلـة تواسـينى مـرة وتوقـد نـيران الشـوق والغضـب مـرة أخـرى.

أوشكت فـرح على إتمام عامهـا الأول حينما تبدّل مجرى الأمور بصـورة لـن يقبلهـا عقـل سـليم، بصـورة تجبرنـا عـلى سـداد ديوننـا المُعلقـة، تجبرنـا عـلى الوفـاء بعهـد ربما نسـينا أننـا قطعناه أو تناسـيناه فنصبـت لنـا أعمالنـا فخـاً لنقـع فى الـشرك وندفـع ثمـن مـا ارتكبناه.

«جنـاة نحـن ومظلومـون، ظُلمنـا فتحولنـا إلى جنـاة نظلـم بـلا شـعور.

جنـاة نحـن ومظلومـون، دُنسـت نفوسـنا و انقطعـت عـن الـروح فجفـت و تيبسـت وأصابتهـا الـشروخ ومنهـا خـرج الجانـى لينتقـم لنفسـه ولكـن مـن أنـاس لم يظلمـوه يومـا»

طالما عشـقت خمـول الربيـع وتلـذذت بالكسـل الـذى يصيبنـى خلالـه، ولكـن هـذه المـرة قـررت اسـتغلال أجـازة شـم النسـيم وتركـت فـرح مـع أمـى وذهبـت لـشراء ماينقصنـا مـن مجمـع تجـارى كبـير قـرب المنـزل، فقـد كنـت أحتـاج إلى شراء بعـض الملابـس الجديـدة لى ولفـرح كـما كنـت أبحـث عـن هديـة لأمـى بمناسـبة عيـد ميلادهـا السـتين. كانـت حـرارة الجـو خانقـة رغـم الربيع،وشـعرت براحـة كبـيرة بمجـرد أن وطـأت قدمـاى الـصرح

الكبير واستمتعت بالبرودة المغلفة لأجوائه. قضيت حوالى أربع ساعات أتنقل من محل لآخر، حتى امتلأت يداى بالحقائب و قررت أن أدلل نفسى أكثر فذهبت إلى مركز التجميل. خرجت منه بتصفيفة شعر جديدة و أظافر لامعة وبشرة نضرة ووجه منتعش وقبل أن أعود إلى المنزل، دخلت مطعما أجلس فيه من وقت لآخر، طلبت قدح من القهوة مع قطعة كبيرة من كعكة الشوكولاتة والتهمتها فى استمتاع وأنا أدلل أذناى بصوت «سيلين ديون» المنبعث من أرجاء المكان وهى تغنى :

Tell him, tell him that the sun and moon rise in his eyes

Reach out to him

And whisper tender words so soft and sweet

Hold him close to feel his heart beat

Love will be the gift you give yourself

قررت أن أنهى اليوم عند هذا الحد، فالساعة كانت قد بلغت الخامسة والنصف وأمى مع فرح طوال اليوم، توجهت إلى سيارتى ووضعت ما أحمل من شنط مكتنزة بحصيلة اليوم من المشتروات على الأرض وفتحت حقيبة يدى أبحث عن المفتاح، ورفعت رأسى لأفتح السيارة فإذا بى أرى خالد يمر من بعيد يشبك ذراعه مع ذراع امرأة شعرت أننى رأيتها من

قبل، وعندما دققت النظر تيقنت أننى أعرفها، بنفس دلالها المبالغ، نفس تمايلها وتغنجها أمام رجل يعجبها، نفس العيون الجريئة المشاكسة والضحكة الرقيعة الصاخبة، لم أُصدِّق عينى،أحقا هى؟! لم تصدمنى رؤيته مع امرأة، فأنا أدرك جيداً علاقاته المتعددة، وخاصة بعد انفصالنا، و لكن صدمتى كانت فى المرأة التى معه والألفة التى جمعتهما. سمية، زميلة الدراسة وصديقتى السابقة، كيف ومتى؟ّ!

تجمدت أواصرى وغمرنى شعور عجيب بالخيانة، لم يلتف إليَّ ولكنها نظرت إلىَّ طويلا من خلفه، تحجرت عيناها ثم أومأت برأسها وغمزت لي ثم أشاحت بصرها عنى وأكملت وصلة الضحك مع خالد .

أسرعت فى وضع مشترواتى فى السيارة وأدرتها وانطلقت هاربة من المشاعر السوداء التى اجتاحتنى وكأنها طوفان غمرنى حتى لم أعد أتمكن من التنفس. ولم أفتأ أسال نفسى طوال الطريق عن سبب ذعرى، واهتمامى، وهل كان سيختلف شعورى إن كانت أى امرأة أخرى؟!

لم أجد الإجابة الحقيقية على تلك الأسئلة التى قرر عقلى الباطن الخبيث التلاعب بى عبرها وكأنه مقدرا لى أن أعيش أسيرة للأفكار السوداء و المشاعر السلبية والتيه داخل نفسى و داخل الآخرين.

قضيت يومى شاردة، عاجزة عن السيطرة على شتات نفسى، صاغرة للتساؤلات التى كانت تتسابق لتعتصر عقلى المجهد، ولم أدرِ بم أجيب على أسئلة أمى التى ظلت تحاصرنى ما تبقى من اليوم، وقررت أن أتملص من إلحاحاها على وتعليقاتها على تغير ملامح وجهى و الذى بدوره ينم عن كارثة، بإعطائها الهدية التى جلبتها من أجل عيد ميلادها فشتت انتباهها مؤقتا أو أدّعت هى نجاح المحاولة، إشفاقا علىَّ.

حاولت النوم ليلتها ولكن وساوسى تسلقت طرف سريرى كظلال سوداء و ظلت توخزنى وكلما حاولت تجاهلها، ازداد توحشها وكأنها تنتقم منى لمحاولتى طردها من بين خلجاتى.

***

فى صباح اليوم التالى رن هاتفى، ومن الطرف البعيد جاءنى صوتها المرح، وطلبت مقابلتى، قائلة :

«أنا عارفة كويس إنك أنت كمان عايزة تشوفينى»، حاولت تمالك أعصابى والسيطرة على الغضب الكامن بداخلى واتفقت معها على اللقاء ظهر ذلك اليوم.

أقبلت علىَّ تتبختر بحذائها عالى الكعب وصوته الرنان، تنورتها القصيرة المتطايرة، تغازل الهواء ويداعبها تحاول رده عن غزله الفضاح فتضع يدها على طرف تنورتها دون جدوى

وكأنها لاتريد حقا أن يكف الهواء عن عبثه المراهق معها بل تستحثه على التمادى. استعر كمدى وحنقى وتلظى الحشا بالغيظ منها، كأنها تقصد أن ترانى أتلوى على الجمر، كأنها تريد أن ترى عينى وهى تستعر حقدا عليها وغيرة منها.

حاولت أن أحافظ على الهدوء المُتصنّع الذى تدربت عليه طويلا، فآخر شيئ أريده أن تشعر أنها غلبتنى أو تفوقت علىَّ. يجب أن تصلها رسالة مفادها :» أنا أفضل حالا . أنا سعيدة وقوية«.

قبلتنى على وجنتى واحتضنتنى بشوق مفتعل، وصوتها العالى سيد الموقف، رددت التحية فى فتور ونظرت إلى ساعة يدى وأنا أجلس. نظرت إليها دون أن أتكلم، وأخذت أرتشف من العصير الذى كنت قد طلبته قبل مجيئها فى تباطؤ، فكانت تلك إشارة بدء الحرب.

قالت وهى تضع ساقاً فوق الأخرى:

«لقد افتقدك كثيرا أيتها الخائنة ولكننى أعذرك فمن تعيش مع رجل مثل خالد لايمكن لها أن تنشغل بأى أحد عنه»

وانفجرت ضاحكة فى رقاعة.

حافظت على هدوئى وقلت:

« تلهيت عنه وتركته للواتى لا يصلحن إلا للهو، ترى منذ متى وهو يلهو معك؟»

غافلها كلامى فابتلعت ريقها ولكنها أرجعت ظهرها للخلف حتى أسندته وأخذت تهز ساقها العليا، قائلة:

منذ وقت طويل، وبما أنه أخبرنى أنك تعلمين بعلاقاته ولا تمانعين، فلم أمانع بدورى فى اغتنام فرصة كهذه مع رجل مثله، فأنت تعرفين جيدا أننى أعجبت به منذ اليوم الأول، وفى النهاية أنا صديقتك وأولى من الغريب. وضحكت ثانية ضحكة مدوية حتى أن المحيطين بنا نظروا إلينا شذرا .

«إذن أنت ترافقيه منذ زمن. عجيبة أنه لم يخترك من البداية، فأنتما تشكلان ثنائى فريد وربما كان لديكما الآن حفنة من الأطفال مجهولى النسب. خسارة أنك وصلت لهذا المستوى المزرى، عموما لقد تركته لك ولأمثالك وأتمنى أن تستمتعى بخبله كما يمتعك فى السرير.

تركت النقود على المنضدة وتركتها خلفى وذهبت. لم أفكر بالنظر إليها، لم أفكر إلا بأننى فى يوم من الأيام صادقت عاهرة و تزوجت من مختل دنئ.

عدت إلى المنزل ثائرة، وكأن غيظى المكتوم جمرا أمسكت عليه حتى وصلت، ظللت أصرخ وأبكى بحرقة ملتاع، بكيت

يومها من أجل كل شئ،بكيت زوجاً لم أملك قلبه، بكيت خيانة حييت فيها غارقة، مغيبة، بكيت حبا لم أكد أمتلكه حتى فقدته وكأن الشتات قد كتب علينا، كأن بى مرض جعله ينفر منى و يفر،بكيت خيبة أمل و بكيت ذنبا لا أعرفه .

انهارت أعصابى تماما حتى فقدت الوعى واضطرت أمى التى فقدت السيطرة على الموقف أن تستغيث بأشرف، الذى لو يدخر جهدا ليصل بأسرع ما يمكن. لا أتذكر ماحدث تحديدا، ولكننى وجدت نفسى على فراشى فى الصباح التالى وأمى مستلقية على الأريكة الصغيرة بجوارى وسرير فرح أمامها، أخذت أتاملها وشعرت بالذنب الشديد لجعلها تعانى مجددا بسببى ولكنها لم تكن إرادتى وربما هى عين إرادتى، ولكننى أرفض الاعتراف وإخضاع نفسى لمحكمة الضمير التى تحاول مغافلتى من حين لآخر وتجتهد فى استدراجى لأقدم كشف حساب عمرى ليصدر الحكم و أكفر عن ذنوبى و أغتسل. وكأننى كنت أنتظر ماحدث لأمرض وأنهار مجددا. غزا القلق قلب أمى وأكد لها أشرف أن الأمر نفسى وليس بى أى شئ عضوى:

«المرض النفسى خطير وبيأثر على وظايف الجسم، لازم تاخدى بالك منها كويس وأنا حتابع مع حضرتك»

«أنا مش عارفة جرى إيه يا ابنى، فيه حاجة غريبة أنا مش عارفاها»

«كله حيبان، ماتقلقيش»

هذا آخر ما سمعته من حديثهما وأنا على وشك ترك الوعى خلفى والغوص فى اللاوعى بكل مافيه من عبث.

أدركت أن أيمن لم يعد معى، ولم يكن لى أو أنا من أفقدته الرغبة ففقدته للأبد، ولم أعد أملك خالد والحقيقة أننى لم أملكه يوما ولكن رؤيته مع سمية و الحوار الذى تم بيننا أشعرنى أننى فى تحدٍ ويجب أن ينتهى لصالحى. من أين جئت بتلك الفكرة، لا أعلم حقا، ربما شعورى بخسارة كل شئ كان هو المايسترو للسيمفونية المشروحة التى عزفت بعد ذلك، وربما لأننى مريضة حقا وأستحق العذاب الذى اخترته طوعا.

***

ذلك الصوت الآتى من غياهب الخواء، هذا الشبح الذى لا يرحل، إنه عفريتى وسجانى:

«اتصلت لأطمئن عليك لأنك لم تغبى عن بالى طوال الأيام الماضية فقررت أن أتهور وأسمع صوتك الذى افتقدته، ولا أنتظر منك ردا، فقط أردت أن أطمئن عليك وعلى الفتاة، ثم وضع السماعة!»

التصقت السماعة بيدى وتصلبت كصنم من حجر مأخوذة بصدمة صوته و كلماته.

لم أفق إلا على صوت أمى وهى تسألنى عن هوية المتصل، فأجبت دون تردد: «اتصال خاطئ» ووضعت السماعة و تملصت من نظراتها الفاحصة المتسائلة إلى غرفتى كطفل ارتكب خطأ مشيناً ويخشى العقاب.

أغلقت الباب خلفى، و بدأت أدور فى أرجاء الغرفة وكأن مساً أصابنى، شعرت لوهلة أننى فقدت عقلى بالفعل وأحتاج إلى علاج نفسى عاجل، بغيت الصراخ ولكنى بحثت عن الجرأة و لم أجدها، أخذت ألهث كمن كان يركض لساعات حتى شعرت بالدوار والإعياء و بركت أرضا أبحث بعينى عن شئ لا أعرفه. كطفل حبسوه فى غرفة مظلمة، يحاول فى جزع البحث عن مصدر للنور فتتسع حدقتا عينيه، ولكن دون جدوى فيغمض نافذتيه على الكون خائب الرجاء ويتكور على نفسه ويستسلم للظلمة.

شعرت بالباب يُفتَح بهدوء، ولكننى لم أتحرك، جسدى خائر بلاعزم أو شعور وكأن كل الوظائف تعطلت ولم تتبق إلا حاسة السمع. بدأت «فرح» فى البكاء فاضطرت أمى إلى مغادرة الحجرة وتركت جثتى فى وضعها الساكن لحين. أوقظتنى أشعة الشمس الأولى التى تسللت من الفتحة التى لم تسترها الستائر،

فنهضت بمعاناة و رأسى يكاد ينفجر من الدق والشج ودخلت الحمام وتركت المياه الساخنة تداعب مسامى وأطلت البقاء تحتها. أنهيت استحمامى وارتديت ملابسى وقررت تناول الفطور فى الخارج قبل التوجه إلى العمل، ولم أنس أن أترك لأمى ورقة أطمئنها علىَّ فيها وأخبرها بأننى أبكرت فى الذهاب.

ذهبت لأتناول فطوراً خفيفاً فى مكانى المفضل، شاردة الذهن ولكنى أكثر انتعاشاً من الأيام الماضية، أخذت أتساءل عن سر اتصاله خاصة بعد لقائى مع ساقطته، هل هناك رابط ما؟هل هناك مؤامرة تُحاك ضدى؟ هل كان صادقا أم أنها إحدى ألاعيبه، لقد حذرنى منه صديقه أشرف كثيرا و شرح لى كل شئ بالتفصيل وأنا لم أسلم منه شخصيا، روحى كادت تزهق بيده ولولا تدخل العناية الإلهية ما جاءت «فرح» إلى هذه الدنيا، ففيم أفكر إذن!.

سعدت بعودتى للعمل، وانشغالى المستمر طوال اليوم مما لم يدع لى وقتا لوساوسيى السامة ولم يتح لى التفكير فى شيئ سوى الأمور التى يجب أن يتم إنجازها، وتعجبت أننى لم أفكر فى الاتصال بأمى لأطمئن على ابنتى، لابد أننى أما مذرية لا تكن مشاعر الأمومة الفطرية لابنتها التى أنجبتها وكادت أن تزهق روحها فى سبيلها.ربما لأننى كرهت أبيها و

ربما لأننى لم أرغب فيها منذ البداية ولكن ماذنبها هى؟ ألم تُقدِّم لى أكبر معروف؟ معروفا يتخطى بمراحل ما مررت به أنا، ألم تكن هى خلاصى من خالد و جنونه؟ ألم تكن هى سبب نجاتى الفعلى؟ أهكذا أنا بلا مشاعر حقيقية أم أصابتنى عدوى الجحود والبرود.

ورغم تلك الأفكار التى لم تداهمنى إلا فى نهاية اليوم وأنا أستعد للعودة، فلم أحاول حتى أن أتصل ولو حفظا لماء الوجه أو حتى لأسأل أمى إن كانت تحتاج لشئ.

عدت إلى المنزل وكنت أتوقع أن أجدها غاضبة وحانقة ولكن القلق كاد يقفز من عينيها ولأول مرة أغوص فى عين أمى وأرى كم هى حانية، يشع منها الدفء و السكينة، فتضاعف شعور الخجل لدى فقبلت وجنتيها وحملت عنها «فرح» و قبلتها وأخذت أداعبها ولم أنتبه لوجود أشرف إلا عندما تنحنح ليلفت نظرى متفاديا فزع محتمل.

«أشرف! لم أرك. منذ متى و أنت هنا!»

«أيضايقك وجودى لهذا الحد؟!، قالها مازحا «

«آسفة لم أقصد ولكننى تفاجأت ليس أكثر ولم تنبهنى أمى لوجود ضيف»

«أنا لست ضيفا، ولاعليك أتيت خصيصا من أجلك»

«من أجلى؟! هل هناك خطب ما؟!»

«وهل هناك خطب يا عاليا؟!»

سكت، لم أستطع الكذب أكثر من ذلك، لم أستطع يوما مقاومة أشرف طويلا أو مماطلته، كان يملك موهبة النفاذ إلى نفسى ليلمس ببصيرته كل الأسرار التى يرفض لسانى الإفصاح عنها. رميت جسدى المُضنَى على الأريكة وتنهدت طويلا وكان ذلك اعترافا صامتا منى بأن الأمور ليست على مايرام.

وكأنها كانت إشارة البدء.

«فى الأيام الماضية لم أشأ مُفاتحتك فى أى شئ، فالانهيار الذى كنت تعانين منه جعل الوقت غير مناسب على الإطلاق، وما حدث أمس أكبر إثبات على أنك مازلت تعانين انهيارا، ولكن من نوع آخر وأحتاج إلى سماع الكثير مما أجهله منك.

«أمى أخبرتك! قلتها محتدة

«لاتتحججي بأمك ولا تجعلى منها الشماعة التى تعلقين عليها أمورك العالقة والتى تقفين عاجزة أمام التخلص منها، فهى لم ترتكب إثماً ولم تسئ إليك، واستغاثتها بى من دافع حبها لك وخشيتها من تدهور حالتك وإصرارك على الصمت الذى يعذبها.»

لم أتمكن من التمادى فى العناد، و رضخت.

أخبرتـه بـما حـدث فى الأيـام الماضيـة، ولكننـى لم أطلعـه عـلى أمـر أيمـن ولم أستطع أن أتحدث معه عـن الأفكار التـى تملكـت مـن عقـلى كالسرطـان، ولكـن اضطرابـى لم يخفَ عليـه وفوجئـت بـه يقـول:

«أتقبلين الزواج منى؟»

لم أجـد مـن الكلـمات مـا يعـبر عـما بداخـلى ولكـن الهيـاج أصابنـى :

«أتعـرض عـلى الـزواج؟ لمـاذا؟ لأننـى مخبولـة وتـود حمايتهـا؟! تتزوجنـى رأفـة بـى وشـفقة عـلىَّ!!»

«أنـا لم أقـل أى مـن هـذا الهـراء ياعاليـا، أنـا أريـد أن أتزوجـك ولكـن الفـترة الماضيـة لم تكن مناسـبة أبدا لعرض أمـر كهذا عليك»

«وماذا تغير الآن؟»

«الآن الأوضـاع أكثـر استقرارا، كـما أن عـودة خالـد فى حياتـك ليسـت بالأمـر المطمئـن، ولـن أسـتطيع أن أخـوض تلـك المجازفة، لذلـك لم يعـد للانتظـار معنـى الآن.»

«مجازفـة!! لمـاذا؟ أترانـى جننـت كـى أُلقـى بنفسـى إلى التهلكـة وأعـود لأحضانـه طائعـة!»

«أنـت لم تشـاهدى وجهـك ولم تسـتمعى لنـبرة صوتـك وأن تروين لى ما حـدث، تريدين تصديـق الأمـر، ترفضين أن تغلبك صديقـة قديمـة فى منافسـة لا أراهـا قائمـة مـن الأسـاس إلا فى مخيلتك وحـدك، تأملين أن يعـود إليـك جاثيـا عـلى ركبتيه طالبا العفـو، لاهثـا خلـف رضـاك! أنـا لا أعلـم لمـاذا هـذه الانتكاسـة ومـا هـو السـبب الحقيقـى والصدمـة التـى تخفينهـا عنـا والتـى أوصلتـك لتلـك الحالـة التـى لا أجـد وصفـا لهـا سـوى أنهـا «مرضيـة».

«ولماذا تريد أن تتزوج من «مجنونة»!!»

«عاليـا! لقـد أعجبـت بـك مـذ رأيتك أول مـرة ولكنـك صرت زوجـة صديقـى، كيـف لى أن أبـوح بأمـر مثـل هـذا وقـد شرحـت لـك سـابقا كل شـئ، فلـماذا تنظريـن للأمـر مـن هـذا المنظـور!! لماذا لاتقبلين بحقيقـة أننـى أحبـك وأريـد أن أكمـل حياتـى معـك أرعـاك أنـت وفـرح؟!»

«و أنا لا أريد شفقة أحد! «

«شفقة!! صحيح كيف حال صديقك أيمن؟»

«لماذا تسأل؟!»

«لأن وسواسى يحدثنى بأن له يدا فيما يحدث لك»

« إذن أسكت وسواسك!! أيمن مشغول فى حياته ولا أقبل منك تلميحا مثل هذا، وقفزت واقفة فأمسك معصمى برفق وقال:

«وأنا لا أقصد شيئا خبيثا، اهدأى أرجوك وفكرى فى عرضى. سأنصرف الآن لأتركك تستريحين ولا تتعجلى أرجوك. فكرى جيدا ومعك كل الوقت، وانصرف فى هدوء»

لا أعلم لماذا ثارت ثائرتى على «أشرف»، فهو شاب ناجح ووسيم، أنقذنى عندما لم يعلم أحد بها أمر به، ووقف بجانبى فى وجه صديقه المخبول، كان لا بد لى أن أشعر بالسعادة و النشوة لأنه يحبنى، كان لابد لى أن أحمد الله أنه أرسله إلىَّ فى الوقت المناسب، وقت لم يعد لأيمن وجود، وقت عادت البالوعة تُخرِج مافى باطنها من ذكريات ملوثة و أنفاس سامة.

هل أخطأ عندما كان صريحاً معى، أهكذا يرد الجميل رغم علمى بأنه لم يأتِ ليأخذ ثمن عملاً قدمه إلا أننى قررت أن أترجم تصرفه لهذا المعنى المريض لأنتقم من قدرته على اكتشاف كذبى وعادته فى التغلغل بين طيات نفسى ليكشف مايدور فيها والذى أبذل جهدا جبارا فى إخفائه فيأتى هو بمنتهى السلاسة يزيل الستار عنه ويتركنى أنا ومشاعرى وأفكارى بلانقاب، ليشعرنى كل مرة بسطوته علىَّ، كم كرهت ذلك.

أطلت التفكير فى الأمر حتى صرت فريسة لأفكارى المضطربة ولم أعطه جوابا ولم أكف عن التفكير فى أيمن و خالد، ترى هل يفتقداننى؟!.

مرت الأيام ولم أعاود الاتصال بأشرف ولم يحاول من جانبه مرة أخرى، وعاد خالد للظهور مرة أخرى وحاصرنى بمكالماته و بالهدايا التى لم يكف عن إرسالها لي على عنوان العمل. أغدق على ابنته بالألعاب و الملابس وظل يلح علىَّ كى يراها و رغم كل شئ شعرت بالضعف أمام إلحاحه وتسللت من المنزل دون إخبار أمى بوجهتى الحقيقية و أخذت معى «فرح». ذهبنا إلى الحديقة الخاصة التى توجد خلف منزلنا القديم وأقبل علينا فى قميصه الأسود الذى كنت قد أهديته إياه أثناء فترة خطوبتنا، قابلنا فاتحا ذراعيه واحتضن «فرح» فى حنان وأخذت أراقب ملامح وجهه فلاحظت لمعان عينيه وهو ينظر إليها بشغف و اشتياق، أم أننى أردت أن أخدع نفسى فتخيلت ذلك.

مر الوقت و هو يداعبها و يسترق النظر إلىَّ من حين لآخر ما بين نظرات غزل فى رداء خجل مزيف و نظرات رغبة جامحة. شعرت بالتوتر ولكن أبهجنى أن أشعر بأنه مرغوب فىّ من جديد وتناسيت كل ماحدث فى تلك اللحظة، كنت أضعف من ورقة شجر صفراء، هزيلة تساقطت مع رياح

الخريف الكئيبة. وكأنه بحدسه الحيوانى تشمم ضعفى فقرر أن يلقى شباكه على الفريسة، فقال:

«أعلم أننى أضنيتك و أرهقتك معى وآذيتك أيضا، ولكننى لم أكن طبيعيا، كنت مريضا والآن لم أعد كما كنت، لقد مات خالد المجنون، خالد المخبول، خالد المريض والماثل أمامك خالد الأب الذى يموت اشتياقا ليمارس أبوته ويحنو على ابنته ويعوض أمها عن كل الخسائر و يكفر عن أخطائه الجسيمة فى حقها، فيا ترى هل ستعطف «ماما» وتصدر قرار العفو لنلم الشمل؟»

وقفت وأخذت «فرح» منه وأنا فى قمة الارتباك حتى أننى كدت أنسى حقيبتها مرة وأنسى حقيبتى مرة أخرى، وبالطبع نظر إلىَّ وهو يبتسم فى هدوء متقمصا دور المحب المشفق على ارتباكى وحيرتى و ساعدنى فى جمع حاجياتنا وعندما ابتعدنا عنه قليلا قال بصوت يسمعه كل من كان فى محيطنا:

«سأنتظر الرد ولن أيأس ولن أتخلى عمن أحب بهذه السهولة»

و التفت إليه و رأيته يبتسم فى هدوء.

حاولت إقناع نفسى بأن الساعات الأخيرة كانت مجرد أوهام و خيالات وأننى جد مريضة و أحتاج للعلاج، ولكن

مكالمات خالد التى لم تنقطع منذ ذلك اليوم طردت تلك الأفكار وأكدت لى حقيقة فقدانى لرشدى، لا لأننى أتوهم بل لأننى أتصرف كمن نوم مغناطيسيا ويطيع الصوت الذى يأمره دون أى تحكم فعلى من قبله. لم أفهم نفسى ولكننى وجدتنى أقبل بفكرة «لم الشمل» و لم أفق إلا على صراخ أمى بعد أن أخبرتها أننى وخالد عدنا زوجين من جديد وبررت الأمر بأننى فعلت ذلك من أجل مصلحة»فرح». ولم أعبأ بصراخها و استهجانها واستنكارها من تلك الحجة الواهية معللة بأن «فرح» لن تكون أحسن حالا وأننى أعلم ذلك جيدا و توعدت لى قائلة:

« أنت لست ابنتى وعندما يحاول قتلك مرة ثانية لا تلجأى إلَيَّ ومن الأفضل أن تتناسى وجودى من الآن، وأغلقت غرفتها بعد أن ألقت بنفسها داخلها ولم ترق لتوسلاتى بأن تخرج لأودعها أنا وفرح قبل أن نعود إلى منزلنا.»

***

قبل عقد القران سألت خالد عن سمية فأجابنى بمنتهى الثقة والهدوء وكأنه كان ينتظر ذلك السؤال:

«عندما عَلِمَت بانفصالنا ظلت تحاصرنى وكنت وحدى أشعر بالخزى والخجل مما فعلت بك كما شعرت بالوحدة

والانكسار، فتسللت إلىَّ كالحرباء ولكننى لم أستطع الاستمرار معها لأننى لم أكف عن التفكير بك وبابنتنا. »

قالها وقد ضم يدى ليحتويها براحتيه وكان ذلك كفيلا بأن يصيبنى بالخدر وأوهمت نفسى بتصديقه.

وعُدْت معه إلى نقطة الصفر، ولكن تلك المرة لم أكن وحدى، عدت وفى رقبتى طفلة لم ترتكب أية خطيئة إلا أننا أبويها، عدت إلى صفر لم يعد صفرا، أكملت الدوران فى دائرة كاملة بدلا من أن أنجو بنفسى وبطفلتى من الفتحة التى صنعتها لنا أياد محبة.

عدنا وعاد هو ليسترد ما أُخِذ منه عنوة.

من هنا نبدأ و ربما ننتهى

ستكون الرحلة هى الشاهد الوحيد

وربما يكون الصمت هو الصاحب الأوفى

فلنبدأ و النهاية نشتهى

***

الأيام الأولى فى المنزل لم تكن كما توقعت ؛ أو بمعنى أدق كما تمنيت، لم يحاول خالد أن يقترب منى، نعم كان ينام معى فى نفس الغرفة ولكن ظهره كان المشهد المعتاد بالنسبة

لى، لم يحاول أن يتحدث معى أو يتودد إلى، يقضى الفترة التى يتواجد فيها بالمنزل فى مداعبة «فرح» و إمطارها بالألعاب والهدايا والملابس، يبالغ فى تدليلها وكأنه يريد أن يثير غيرتى و يجبرنى على المقارنة بين معاملته لها ولى، أم أنه أراد أن يؤكد لى أن قرار العودة كان من أجل «فرح» فقط وأننى لست فقط من ضحّى بهذا القرار وأنه أجبر نفسه على العودة إلى علاقة أغلب ذكرياتها كالعلقم.

لم أعد أفهم و لم أتمكن من التوغل داخل عقله لأرى مايدور فيه وماذا يخبئ لى فى جعبته من نوايا، ولكننى لم أشعر بالارتياح، بِت حبيسة حالة الترقب تلك حتى أننى لم أعد أنام، أظل مستيقظة طوال الليل ويبدو أن ابنتى شعرت بما أصابنى فبدأت تستيقظ هى الأخرى بعد منتصف الليل وحتى الساعات الأولى من الصباح، وبدأت تقضى معظم يومها فى البكاء و الصراخ دون أسباب واضحة وعندما يقترب منها أبيها تبالغ فى الصراخ والعصبية حتى صارت كالندابة تنتحب طوال الوقت على ميت لم يمت بعد، فأثار هذا الأمر غضب خالد كثيرا.

«لماذا تصرخ هكذا؟! ماذا فعلتِ لها، لقد كانت على خير حال؟»

«أنـا؟! أنـا لم أفعـل لهـا شـيئاً، فـرح لاتنـام ولا تـأكل جيـدا ولتعلـم أنـا أيضـا لا أنـام و ربـما هـذا يؤثـر عليهـا»

« إنـه خطأك إذن، أصلحى الأمر، فأنـا لم أردّك من أجل سـواد عينيـك وجاذبيتـك الفتّاكـة، فـرح هـى السـبب وإن لم أسـتطع مداعبتهـا والجلـوس فى منـزلى هـادئ البـال فـما الفائـدة مـن هـذه التضحيـة!»

«تضحيـة؟!! ألم تكـن أنـت مـن ألـح علـىَّ؟ ألم تكـن أنـت مـن حاصرنـى؟ ألم تكـن أنـت مـن كان يدّعـى الحنـان؟ ألم تكـن أنـت مـن قـال «أنك كنـت مريـض»؟؟ و الحقيقـة أنـك مازلـت مريضـا ولسـت وحـدك المريـض أنـا أيضـا مريضـة ،عقلى معطـوب، مختل لأخـوض كل هـذه المعـارك وأقحـم فيهـا أنـاس ليس لهـم أى ذنب أو ذرة مسـؤولية عـما حـدث لى وبعـد أن أمـد لى الله يـد الغـوث، عـدت لألقـى بنفسـى فى البئـر بإرادتـى مـن جديـد وهـذه المـرة لسـت وحـدى، بـل جـررت معـى ابنتـى وأقحمتهـا فى خضـم معركـة ليسـت مـن شـأنها!»

قهقه فى هستيريا وقال:

«أنـاس مـن الذيـن تتحدثـين عنهـم؟ أمك التى عاشـت عمرها كقطـة حبيسـة خرسـاء ولم يخـرج لهـا صـوت إلا بعـد وفـاة زوجها؟ أم الخائـن أشرف الـذى فضـح صديـق عمـره وشـهد ضـدى

ووقف أمامى كالعدو بدلا من أن يقف معى!! أم حبيب القلب، صديق الجامعة «أيمن» الذى ظهر فجأة ليكون لك حائط صد تحتمين خلفه؟؟ هل تستطيع الكونتيسة «عاليا» أن تطلعنى أين هؤلاء الآن!!»

قهقه ثانية ثم تحوّل وجهه وقال:

«الآن وبعد أن هدمت كل الحواجز التى كانت تفصل بيننا، لم يعد هناك من يقف أمامى ليحميك منى، سينقلب عليك الجميع بعد أن خذلتيهم ولن يتبقى لك أحد سواى، وستتقبلين الأمر شئت أم أبيت وإلا سأحرمك من ابنتك فالآن وبعد أن عدت إلىَّ بإرادتك لم يعد لحكم المحكمة أى معنى، أظننت أنك الأذكى وأنك قد وصلت لشاطئ الناجين الفائزين من خبل خالد؟!! أضغاث أحلام يا عزيزتى، أضغاث أحلام!»

قام وأمسك بذراعى وجذبنى إليه بعنف آلمنى وجعلنى أصرخ وبالتالى صرخت فرح هى الأخرى وانفجرت فى البكاء:

«أنا أجرى فى شرايينك مجرى الدم، أحيا بخلايا عقلك، أتشبث بالهواء الذى يدخل رئتيك، أحل محل نبضات قلبك، لذلك لم تقاومينى، كما أنك لا تعنين شيئاً لأحد، لست جذابة كما تعتقدين، لست فتاة أحلام أحدهم، بدونى كنت ستعيشين وحيدة حتى تزحف عليك أفعى الشيخوخة فتهرمين قبل

الأوان، أنا لك كل شئ وبدونى لن أجعلك تنالين أى شئ»

سحبت ذراعى من بين يديه بمعاناة بالغة و أنا أصرخ:

«هذا عشم إبليس فى جنة الخلد أيها المعتوه، لن أتركك تنال منى ولن أسمح لك بأن تهدم ماتبقى لى من عمر وتحرمنى من ابنتى، الذكرى الحسنة الوحيدة منك!»

وركضت أحمل ابنتى واتجهت ناحية باب الشقة لكنه لحقنى ووضع يديه على وسطى و حملنى بابنتى، ألقانى على الأريكة وشد فرح منى وأدخلها الغرفة وهى تصرخ بلا انقطاع، وبدأ ينهال علىَّ بالسباب واللكمات ولكننى استطعت التملص منه هذه المرة وخرجت من شقة إبليس وركضت بملابس البيت فى الشارع كالمجنونة، لم أشعر بأحد و لم أرَ أحدا، فقط أركض و أصرخ وأبكى، ثم هاجمنى صوت صرير و أزيز و شعرت بأننى أطير فى الهواء، وقتها ظننت أن كل شئ قد انتهى وأننى أُحَلِّق فى سماء غير السماء وأتنفس هواءً غير الهواء فاستسلمت لذلك الشعور ورأيت النور ينادينى من بعيد فابتسمت له مرحبة، ثم فجأة عدت لأرتطم بأسفلت الأرض التى ظننت أننى هجرتها للأبد، ثم أظلمت الدنيا والنور ظل ينكمش رويدا رويدا حتى صار صفرا و صرت أنا جزءًا من الصفر.

***

ماذا بعد ؟

تلك الوجوه الباهتة، تتحرك فى صمت ملتحفة بمعاطفها البيضاء ، بلا تعابير واضحة، تذوب ملامحها فى بعضها البعض، لا تستطيع أن تميز الحزين منها من السعيد، أقرب إلى ماكينات مبرمجة منهم إلى بشر من دم و لحم و أحاسيس، ومن أنا لأتحدث عن الأحاسيس و زوجتى ترقد بلا حراك، جثة هامدة على فراش ضيق بالكاد يحتوى جسدها الهزيل، أجلس رهينة لدى الوقت الذى يمر عمدا ببطء مميت.

عندما ركضت هروبا من بطشى، لم تمر دقائق إلا وسمعت صوت ارتطام شديد وامتلأ الشارع بهرج ومرج و صراخ مدوٍ وأصوات متداخلة تصيب أذنيك بالعجز عن التمييز بينها و لكنها فى الوقت ذاته تقذف فى قلبك رعبا تتسارع إثره ضربات قلبك وتنسحب أنفاسك إلى أخمص قدميك فتشعر أنك على وشك فقدان الوعى.

خرجت إلى الشرفة مسرعاً وتمنيت أن تُكَذِّب عيناى ما يحدثنى به قلبى، ولكنى لم أستحق الرحمة، رأيتها مضرجة بدمائها التى أخفت ملامح وجهها وردائها، ولكن خفها المتطاير أكد لى هوية الجثة الراقدة وسط الطريق، حملت «فرح» ؛ التى تصاعد صراخها وكأنها تدرك حقيقة الأمر ، وركضت كالمجنون بعقل مشلول، عجزت عن تذكر تفاصيل ماحدث، ولكن آخر مشهد أذكره هو «عاليا» أو بمعنى أصح جثتها المطروحة داخل سيارة الإسعاف، يحيط بها رجلان يحاولان إسعافها وأنا جالس فى آخر العربة أرتعش وبين يدى «فرح» التى قررت فجأة التزام الصمت احتراما للمشهد المهيب!

حاولت أن أبحث عن ملامح وجهها ولكننى لم أجد شيئاً، فقط جثة تتلفح بكفنها قبل الأوان، وأسلاك تمتد منها و إليها، و صوت طنين مزعج، وبياض الغرفة يحاصرنا بلون السكون، وكأنه العذاب وقد اتشح برداء الصفاء المفتعل، ك»عشماوى» الذى أقبل عليك لينفذ حكم الإعدام الصادر وابتسامة عريضة تعلو وجهه لاتتناسب مع بشاعة الفعل.

كنت قد تركت فرح مع إحدى الممرضات التى قالت أنها ستأخذها إلى قسم الأطفال ليتم فحصها ورعايتها وسلمتها لها دون أدنى مقاومة أو محاولة لتوجيه أى استفسار. دخل «أشرف» لاهثاً، بحدقتين متسعتين يشعان غضبا وسخط، نالا

منى وأخبرانى أن ما ينتظرنى ليست مجرد منافسة، بل هى حرب وحلبة قتال حيوانية لن تنتهى إلا إلا بموت أحدنا. هرول تجاه «عاليا» ولأول مرة أرى «أشرف» يبكى ، جفف دموعه بطرف أكمام معطفه الأبيض وأخذ يفحصها و يقرأ تقرير حالتها، زم شفتيه و فرك جبينه فى حيرة ويأس ثم خرج وصفق الباب خلفه متحاشيا النظر إلىَّ. نبذنى سابقاً و الآن سيشن علىَّ الحرب التى طالما أجلها.

لا أعلم لماذا غرقت فى شعورى بالذنب، لقد قتلت قديما ولم أشعر بالذنب حتى تلك اللحظة، لم يؤذنى ضميرى يوما بل أشك إن كنت أمتلك واحدا، لا أعلم إن كانت«فرح» السبب أم أننى قد أحببت «عاليا» حقا. أحببتها! وهل يفعل من يحب ما أفعله. إنه حب مسموم، يزرع الشوك فى الفراش باسم الغيرة، يحلل الامتلاك باسم الرجولة، يبيح الانتهاك ويجعل من الاختلال عبقرية وتفرد!

عاد أشرف ومعه طبيبان تعكس هيأتهما الوقار والخبرة، تبادلا الحديث همسا وحاولت أن أسترق السمع حتى توصلت إلى أنهم سيضطرون إلى إجراء عملية خطيرة لها ولم أتحمل أن أظل صامتاً أكثر من ذلك فقلت:

«عم تتحدثون؟ و عن أى عملية تتحدثون؟»

نظـرا الطبيبـان إلى خالـد، ثـم إلى أشرف الـذى اقـترب مـن خالـد حتـى تلاصـق وجهيهـما وقـال فى حـدة:

«وهـل تجرؤ عـلى السـؤال و أنـت السـبب فى كل هـذا؟ تلـك المـرة الأمـر خطير ولـن يخلصك مـن قبضتـى أى مخلوق مهـما كان»

فأمسـك أحدهمـا بذراعيـه ونظـر إليـه يحثه عـلى تمالـك أعصابـه وتنـاول هـو دفـة الحـوار منـه و قـال:

«سـنجرى لهـا عمليـة فى المـخ، لقـد تعرضـت جمجمتهـا لإصابـة بالغـة وتهشـم جـزءا كبـيرا منـه و أدى إلى تـأذى جـزء مـن المـخ خاصـة «الفـص الصدغـى»،وسنسـتغل وجـود الدكتـور «فريدريـك» الـذى جـاء زائـرا مـن ألمانيـا للقيـام ببعـض العمليـات الجراحيـة الحرجـة، ولكننـا لا نعلـم نتيجتهـا، بمعنـى أوضـح لا نعلـم إن كانـت سـتنجو أم لا و إن نجـت كيـف سـيكون تأثيرهـا عليهـا حيـث أن الإصابـة فى أماكـن تواجـد مراكـز حيويـة، ولكنهـا مجازفـة لا يوجـد بديـل لهـا سـوى التضحيـة بحياتهـا دون أدنـى مقاومـة»

«أخرسـتنى كلماتـه و لم أجـد مـا أقـول، بحثـت عـن الحـروف، حاولـت تركيبهـا لتخـرج كلـمات ربـما عنـت شـيئاً لكنـى أخفقـت. جلسـت عـلى الكرسـى سـارحاً فى أرضيـة الغرفـة التـى احتلهـا الأبيـض هـى الأخـرى وتشـتت ذهنـى تمامـا، وأخـذت أتسـاءل

هل الأبيض علامة على شئ ما؟ هل يحيط بى من كل جانب لأنه يحمل لى رسالة بعينها؟ هل هو كما يبدو صافياً أم أنه يحمل فى أعماقه صفة أخرى، ربما النهاية، ربما الخلاص.

لا أتذكر متى خرجوا و لكننى أفقت على صوت «فرح» ينادينى من بعيد فخرجت أبحث عن قسم الأطفال ملبيا لنداهة ابنتى، تلك الصغيرة التى بالتأكيد ستكبر يوما لأكون أنا ألد أعدائها.

***

والدتها تقف فى ركن بعيد وقد تجمدت ملامحها، ترمقنى من حين لآخر بنظرات متوعدة ،ولا أعلم من أخبر «أيمن» بالأمر، فقد جاء ومعه امرأة عرفت بعد ذلك أنها أخته، ارتمت والدة «عاليا» فى حضنه فور وصوله وأجهشت بالبكاء وكأنها كانت تنتظر ظهوره لتخرج ما يعتمر به صدرها من مرارة ونحيب على ابنتها.

تعجبت من هذا المشهد الذى دل على قوة العلاقة بينهما وكيف بدا أيمن قريبا إلى والدتها وبالتأكيد كان قريبا لعاليا أيضا، ولن أنكر أن المشهد أغضبنى رغم أننى لم أكن أنتظر من والدتها أن تحتضننى أو تقترب منى حتى فهذا آخر ما أتمناه، ولكنى لم أستطع التحكم فى الغيظ الذى نخر فى عظامى

حتى كدت أصرخ منه لولا أننى تمالكت نفسى وهى على شفا الانفجار .

أخذت العملية ساعات النهار حتى حل المغيب، ظهر خلالها «أشرف» لدقائق تحدث فيها إلى الثلاثة المتمركزين فى الركن البعيد متجاهلاً وجودى ، ثم اختفى بعد ذلك حتى انقضاء العملية.

مرت الساعات علينا مرور السنوات الكبيسة، تلاعبت عقارب الساعة بأعصابنا تلاعب الساحر المحنك بعرائسه، كلما مر الوقت ، هربت دمعة أو نشيج يجاهد صاحبه فى خنقه داخل صدره ولكن المقاومة تفشل ويتسرب الصوت رغما عنه. البياض يزداد اتساعا ودقات العقارب تعزف سيمفونيتها الخاصة، وأنا وحدى أقف منبوذا بين نظرات حاقدة ودعوات تحتسب حقها منى عند الله. ثم يلوح لى وجه «فرح» من جديد ينادينى فأذهب إليها علنى أجد بعض عزاء.

انتهت المرحلة الأولى،وانتقلنا إلى مرحلة جديدة من العذاب مُعَنونة»بالترقب».

انتظار أمر نجهل طبيعته و سماته العامة،انتظار خبر يتأرجح بين المفاجأة و الفاجعة،انتظار المجهول بأهواله وغموضه أسوا مايمكن أن يحدث لشخص مثلى. لطالما كرهت الانتظار و

وقفت منه موقف عداء، لم أجد فى نفسى يوماً أناة أو صبر، فمن المستحيل أن تجمع بين شخص يرى نفسه محور الكون الذى يجب أن يدور الجميع فى فلكه والصبر، لذلك كان الانتظار خير عذاب لى.

لم يستطع الأطباء طمأنتنا مباشرة وقالوا أنهم سينتظرون مرور ساعات الخطر عندئذ يمكنهم إجابتنا على تساؤلاتنا الشغوفة ومنحنا بعض الراحة!!

لم يظهر أخو «عاليا»، وكأنه لم يوجد يوما، حتى أننى بدأت أشك أنه صنع خيالى . لم يكن الفارق بيننا مهولا، فهو صورة أقل شراسة منى ليس أكثر، وإن أطلق لنفسه العنان سيصير أكثر فظاعة وفتكاً.

ظهر «أشرف» فى اليوم التالى بعد اختفائه الطويل، ألقى السلام على «أيمن» ووالدة «عاليا» ورأيته من ركنى البعيد يربت عليها ويحاول طمأنتها، لاحظت الألفة التى جمعت أشرف و أيمن، وكأنهما أصدقاء منذ زمن طويل، أهكذا ببساطة استطاع أشرف أن يستبدلنى! «كل هذا من أجل خاطرك يا عاليا!»

أقبل ثلاثة من الأطباء ودخل معهم أشرف إلى الغرفة الراقدة فيها ضحيتى، وقضوا حوالى نصف ساعة قبل أن

يخرجوا، لم أستطع أن ألتزم بموقعى أكثر من ذلك وتوجهت ناحيتهم سريعا وقال أحدهم:

«الحمد لله، الحالة مستقرة ونستطيع أن نقول بأن مرحلة الخطر قد مرت بسلام»

فقالت والدتها فى توتر:

«نجحت؟ العملية نجحت؟»

صمت الطبيب قليلا وتردد قبل أن يجيب:

«لن نستطيع أن نجزم بهذا الأمر بعد، سننتظر حتى تستعيد وعيها ويستدعى هذا ضبط النفس والتماسك خلال الأيام المُقبلة .

ثم قالت:

«لا أفهم، لقد قلت أن مرحلة الخطر قد مرت بسلام، ألا يعنى ذلك نجاح العملية»

أطرق ثم أجاب الآخر الذى كان أكثر ثباتاً وجرأة:

«ليس بالضرورة، فالعملية حساسة وخطيرة للغاية وقد تنتج عنها آثارغير متوقعة، لذلك لا نملك الآن سوى الانتظار والتزام الهدوء حتى نجزم بنجاحها»

ثـم استأذن فى الانـصراف وأشار لباقـى الفريـق الـذى تبعـه فى حركـة دراميـة صامتـة.

وجمـت والدتهـا وظلـت سـاهمة صامتـة، أمـا أشرف فنظـر لأيمـن وأشـار إليـه، فتبعـه وهمهـا بحديـث هامـس نظـر لى أيمـن خلالـه نظـرة خاطفـة أربكتنـى، ومـا أن أنهـوا حديثهـا المقتضـب حتـى رأيـت أيمـن مُقبـلا علـىَّ بنظـرات حيـوان ضـارٍ لطريدتـه.

«بـدون مقدمـات يـا خالـد، جميعنـا يعلـم أن لـك يـدا فيـما حـدث لعاليـا، والأمـر هـذه المـرة لـن يمـر مـرور الكـرام، وقبـل أن تتذاكـى وتقـول أنهـا عـادت إليـك بإرادتهـا سـأقول لـك أن أشرف يؤكـد أن عاليـا تعانـى مـن اضطـراب نفسـى وأنهـا ليسـت مسـؤولة تمامـا عـن تصرفاتهـا ؛ وهـى بالطبـع تجهـل تلـك هـذه الحقيقـة، وإثباتهـا كفيـل بـأن يخلصهـا منـك مـرة أخـرى، ولكـن هـذا ليس وقـت الحسـاب، سنؤجل خطـوة المقصلـة قليـلاً ، لأننـا وللأسـف نحتـاج إلى حضـورك عندمـا تفيـق لأنـك وللأسـف أيضـاً مـن المقربـين ومـن المهـم أن يسـجل الأطبـاء ردود أفعالهـا تجـاه كل مـن تربطهـم صلـة بهـا» .

أعطانـى ظهـره فأمسـكت بذراعـه لأسـتوقفه، فاسـتدار ونظـر إلىَّ فى ازدراء فلـم أهتـم وقلـت:

«أما زلت تحبها؟»

ازداد الشرر المتطاير من عينيه وقال:

«ومن قال لك أننى أحبها؟»

«نظرات عينيك لها منذ أيام الجامعة عندما كنت أراقبها»

«وبما أنك خبيراً هكذا ، لماذا تزوجتها إذن؟»

«لأن هواياتى لا تتضمن الخسارة»

«نعم. يبدو أنك تهوى ما هو أكبر، وستناله قريبا لداعى للعجلة»

انفجرت ضاحكاً و قلت:

«وياترى ما الذى سأناله من راهب الحب؟»

تخلص من قبضتى واقترب منى حتى كادت عيناه تلتصق بعينىَّ و قال:

«القصاص.»

ثم أدبر وقسوة أنفاسه تزلزل ذرات الهواء.

استفزازى لأيمن كانت محاولتى الأخيرة لأثبت أننى مازلت المسيطر على الأوضاع، ولكن فى صوته و نظراته شئ نادر وغريب لم أصادفه من قبل، صوته به صدىً يوحى بأنه قادم من مكان بعيد وعيناه يتسرب منهما بريق غير معهود،

وكأننى كنت أواجه قديساً أو والياً ذا كرامات، كائناً ما فى هيئة البشر ولكنه ليس منهم ، وعند تلك الفكرة اختلج الرعب فى صدرى، وشعرت بأن الآتى سيغلب كحل الليل فى قتامته.

استمرت «عاليا» غائبة فى العالم الموازى لمدة تقارب الأسبوع، مما ضاعف القلق فى قلوب الجميع ولكننى كلما طالت المدة شعرت بالاسترخاء، كلما قفز التوتر لأعلى درجاته فى النفوس المحيطة تنامى هدوئى واستمتاعى بالوقت، فكل ما يبعد لحظة المواجهة عنى صديقى و حليفى والآن فقط غيَّر الوقت تكتيك اللعبة وتحرك من موضعه الذى لزمه طوال الأيام العصيبة الماضية وجاء أخيراً ليقف فى صفى ويشدد من أزرى، أو هكذا بدا، و رغم قلقى السابق على «عاليا» إلا أننى لم أكن واثقاً من رغبتى فى عودتها.

تركت «فرح» مع جدتها وعدت إلى العمل ؛ فى انتظار عودة وعيها الغائب، ولكن يبدو أننى قد تركت تركيزى وكامل إدراكى فى المستشفى، ويبدو أن حالة الهدوء التى انتابتنى كانت مجرد مخدرا خادعتنى نفسى به، ولم أستطع أن أكمل يوم العمل لآخره، فكنت أستأذن باكرا متعللا بضرورة عودتى ل»عاليا» التى ترقد معلقة بين حياتين، وبرعت فى دورى فلم يمانع أحد، بل على النقيض حثنى الجميع على البقاء بجوار

زوجتى المسكينة ، وأمطرنى الجميع بكلمات المواساة وتنافسوا على التعبير عن شفقتهم على حالنا.

لو أعد فى أى من تلك الأيام إلى المستشفى، بل كنت أعود إلى المنزل الذى لم أمحو منه آثار الليلة المشؤومة، وكأن ذلك العبث الذى حل بالمكان هو الماء الذى إن ذهب زهقت روحى.

***

ما إن وطأت قدماى الشقة وأنرتها حتى شعرت بنبضات فى رأسى آلمتنى وأجبرتنى الومضات التى غافلتنى على إطباق عينىَّ على الفور فأعدت الشقة سريعا لظلامهما السابق،و آلام رأسى تنخر فىِّ، وجسدى يرتجف كأن الكهرباء صعقتنى.

حاولت النهوض وجاهدت لأنتصب فاتكأت على الحائط وأنا مغمض العينين حتى وصلت للأريكة، وألقيت بجسدى برفق عليها. أخذت نفسا عميقا استدعيته من أغوار نفسى القاحلة،و فتحت نافذتىِّ ببطء و حذر خشية أن يعود الألم ليضرب من جديد.

ظل الألم فى معدتى رافضا الخروج وشعرت بإعياء شديد وكأننى على وشك أن أفقد وعيى، دارت بى الأرض رغم أننى كنت جالسا وظلّت مشاهد تلك الليلة تتواتر وبمجرد

أن تنتهـى تبـدأ مـن جديـد، اسـتمرت فى التكـرار وشـعرت أن طبـولا تقـرع فى رأسـى لتضاعـف مـن تعذيبـى ورأيتنـى مربوطـا إلى جذع شـجرة يابسـة، عاريـا وسـط صحـراء لا يوجـد بهـا حتـى حـشرة حقـيرة، وإذا بسـوط ينـزل عـلى جسـدى مـن اللاشـئ، يتحـد مـع القيـظ المميـت ليغـور فى لحمـى ويحرقنـى.

لم أتحمـل الوضـع أكثـر مـن ذلـك، ولم أسـتطع أيضـا أن أزيـل آثـار العـدوان، فانسـحبت بنفسـى إلى غرفتـى وارتميـت عـلى السريـر وهربـت إلى عـالم اللاوعـى.

رأيتهـا تقـف بعيـدا، ثابتـة لاتتحـرك، تنظـر إلى شيئ مـا لا أراه، تبـدو كتمثـال نُحِـت فى العـدم، حاولـت أن أقـترب منهـا ولكـن كلـما حاولـت التقـدم كلـما ابتعـدت المسـافة وكأن الأرض تحولـت إلى بسـاط يسـحبنى معـه للخلـف، وعندمـا أرهقتنـى خيباتـى وأعيانـى الحـر ؛ الـذى كلـما اجتهـدت فى المحاولـة احتـد وازداد شراسـة ، ناديتهـا ولم تلتفـت، كأنهـا صُمَّـت،حاولـت مـرة أخـرى ولم أيـأس، حتـى اسـتدارت ببـطء فى حركـة أقـرب للآلهـة منهـا إلى حركـة جسـد ينبـض، ونظـرت إلَىَّ نظـرة خاليـة مـن كل شـئ، نظـرة فارغـة، خاليـة مـن أى إحسـاس أو تعبـير، وظلـت عـلى هـذه الوضعيـة حتـى تحجـرت ثانيـة عـلى الوضـع الجديـد. ثـم نادانـى جـرس مـن بعيـد، والتفـت أبحـث عـن مصـدر الصـوت الـذى كان آتيـاً مـن خلفـى ومـددت يـدى أمسـك بالسـاعة العالقـة فى

الهـواء والتـى تهتـز بعصبيـة فتحـوّل الصـوت إلى مـا هـو أقـرب إلى صراخ الصغـار منـه إلى الرنـين وأخـيرا أمسـكت بهـا فسـحبتنى فجـأة لأجـد نفسـى نائـماً عـلى وجهـى، محملقـا فى سـجادة الحجـرة السـوداء، ولعابـى يسـيل عـلى السريـر، وأدركـت أننـى عـدت مـن جديـد إلى الواقـع الـذى حاولـت الهـروب منـه فركـض خلفـى يطاردنـى فى منامـى ليسـلبنى حتـى لـذة الهـروب المزمـع.

عانيـت كثـيرا حتـى أسـتعدت الشـعور بأطـرافى وتمكنـت بعـد معانـاة مـن النهـوض مـن الفـراش، احتـل الـدوار رأسـى و عـاث فيـه، تراقصـت الأرض سـكرا وتمايلـت نكايـة فىّ وإغاظـة لعقـلى الهـش، وصلـت أخـيرا للمطبـخ وفتحـت الثلاجـة، تناولـت زجاجـة مـاء مثلـج ، أضفـت إليهـا القليـل مـن مـاء الصنبـور وصببتهـا عـلى رأسـى، صدمـت الـبرودة أعصابـى فشـعرت وكأن الكهربـاء قـد تشـبثت بأطـرافى وأجـبرت أحشـائى عـلى الـصراخ، عـدا لسـانى الـذى لم يخـرج صوتـا وكأن الـصراخ توقـف عـلى حافـة الحنجـرة وشـعرت أننـى سـأنفجر. اعتـصرت رأسـى بـين يـدى، محـاولا السـيطرة عـلى الآلام المهاجمـة، جلسـت أرضـا أحـاول أن أتنفـس حتـى طـرد الهـدوء الألم أخـيرا و تمالكـت نفسـى وقمـت لأعـد فنجـان قهـوة.

تحممـت وارتديـت ملابـس نظيفـة وهممـت بالخـروج الخـروج عندمـا رن هاتـف المنـزل؛ الأمـر الـذى كان وحـده كفيـلا بـأن يثـير

الفـزع فى نفسـى، فقلـما دق جـرس الهاتـف منـذ أن صـار اعتمادنـا الأساسـى عـلى الهاتـف الخلـوى، ونظـرت للهاتـف فى يـدى فوجدتـه قـد مـات تمامـا لاحيـاة فيـه ، حينهـا تأكـدت أن هنـاك أمـرا جلـل. أسرعـت لأرفـع سـماعة الهاتـف فـإذا بهـا المستشـفى تخبرنـى بـأن «عاليـا» قـد عـادت إلى عالمنـا.

***

تقاسـيم الوجـوه منقبضـة، متشـنجة، الخطـوط يابسـة والنظـرات زائغـة، حيرى، والهـدوء يخيـم عـلى المـكان على عكـس مـا توقعـت، فقـد كنـت أنتظـر احتفـالا بعـودة «عاليـا» مـن العـالم الآخـر التـى هجـرت الجميـع إليـه ولكـن يبـدو أن هنـاك مـا لا يبشر بالخير. وبمجـرد أن وقعـت أنظـاره علىَّ حتـى رفـع ذراعـه لأعـلى يحثنـى بإشـارة منـه لأقبـل عليـه، لبيـت الدعـوة مسرعـا وقلبـى يخفـق بشـدة حتـى شـعرت بأنـه توقـف للحظـة وعندمـا وصلـت إليـه ، أمسـك «أشرف» بذراعـى وضغـط عليـه بشـدة و همـس فى أذنـى:

«يحتاجون إليك فى الداخل.أسرع»

ودفعنـى نحـو البـاب بعـد أن فتحـه لى وأغلقـه خلفـى وكأنـه يـزج بـى فى السـجن.

بمجرد دخولى، اتجهت جميع الأعين نحوى. فتحات دائرية تعلو أردية بيضاء، تزين وجوها قلقة و جادة.

تفاجأت بعدد الأطباء المجتمعين فى الغرفة حول فراشها وبحثت بينهم عن عيون أميزها، فعثرت على الطبيب الذى ألقى فى وجهنا قنبلة القلق الأولى، وعندما تلاقت أعيننا، مال على المجموعة التى بدا أنه يرأسها، لم أسمع ماذا قال تحديدا ولكنى حزرت بأنه كان يطلعهم على هويتى، فنظر إلىِّ الجميع وهزوا رؤوسهم تفهما.

أفسح الجميع لى المجال لأقترب من الفراش، وكلما تقدمت خطوة ازدادت الطبول اهتزازا فى قفصى، حتى ظننت أن كل من حولى يسمعونها.

قال لى هامسا:

«حاول أن تحافظ على هدوئك نريد أن ندرس رد فعلها عندما تراك»

أزعجنى إلحاح التساؤلات وعلامات الاستفهام المتكدسة فى ذهنى المضطرب، هل أفضى إليهم »أشرف« بشكوكه ويحاولون إثبات الأمر من خلال هذه المواجهة، أم أن هناك ما يخفونه عنى.

اقتربت ورأيتها.

تجلس فى هدوء، وكأنها كانت نائمة لا أكثر. تنظر إلى الجميع بنظرات خالية من أى شعور،لا قلق، لا تعجب،لاحزن، لا ألم، لاسعادة، لاشئ. لن أنسى ما حييت نظرة «اللاشئ» تلك، وكأنها جالسة فى اللاموجود وكل المحيطين غير موجودين.

جلست بجوارها، أمسكت بيدها الصغيرة ونطقت اسمها أخيرا بعد أن وقف أكثر من مرة فى حلقى، كررت النداء أكثر من مرة، فنظرت إلّى نفس النظرة الجامدة، لم أفهم. وضعت يدى الأخرى على رأسها، ومسحت بهدوء على شعرها الأملس بحذر ودون أن ألمس الضمادات، ولكنها لم تتحرك، لم ينفعل جسدها معى، لم تنفر ولم تميل.

استمرت فى اللاشئ، فنظرت إلى الطبيب متسائلا، فرأيته يتبادل نظراته الغامضة التى أمقتها مع باقى الفريق الأبيض، وخرج فلحقوا به جميعا وتركونى معها.

لأول مرة منذ الحادث،لا أشعر بالقلق من وجودى فى المستشفى ولكن شعورا آخر حل محل الأخير. شعور بالتوعك، كأننى أجلس فى مشرحة بمفردى مع جثة أنتظر أن تعود إليها الحياة فى أية لحظة.

ابتعدت عن الفراش،وجلست على الكرسى المتروك عمداً أمامه. أخذت أتاملها، وهى تنظر ناحيتى من حين لآخر، بلا

كلـمات، بـلا مشـاعر أو انفعـالات، ثـم أدارت رأسـها بهـدوء و أغمضـت عينيهـا وذهبـت إلى رحلـة مـع نـوم عميـق، لم أسـتطيع كبـح نفسـى مـن تذكُـر كل مـا حـدث يومهـا بـأدق تفاصيلـه.

طـال الوقـت فانزلقـت فى الكرسـى قليـلا وأغلقـت نافذتـىَّ ، رأيـت «دعـاء» واقفـة أمامـى، مضرجـة بدمائهـا، تنظـر إلى بعينـين غاضبتـين، ثـم أشـارت إلى عاليـا الملقـاة والله وحـده أعلـم بسرهـا ومـا بهـا، ثـم تعـود لترمقنـى بنظراتهـا الحارقـة، واقتربـت منـى شـيئا فشـيئا ومـدت يديهـا التـى تقطـر دمـا، تحـاول الوصـول إلى؛ ولاحظـت لأول مـرة الشـبه بينهـا وبـين عاليـا.

اقتربـت أكثـر حتـى شـعرت بسـخونه أنفاسـها تحـرق وجهـى ، فـإذا بـى أنتفـض مـن مكانـى فزعـا أبحـث عنهـا فلـم أجـد أحـدا، أنـا متاكـدة أننـى لم أنـم، ولكنـى لسـت متأكـدا أن شـيئاً لم يحـدث.

قمـت لأغسـل وجهـى فى المرحـاض الصغـير الملحـق بالغرفـة، ونظـرت فى المـرآة الصغـيرة فرأيـت عينـاى بلـون الـدم، وتأملـت وجهـى فرأيتنـى أكبرنـى ببضـع سـنوات.

فى الفـترة الأخـيرة لاحظـت أننـى لم أعـد أُفـرِّق بـين الوهـم والحقيقـة، أصبحـت أحتـاج إلى مـن يؤكـد لى كل شـئ، مـن يقـف معـى الآن؟ كيـف أبـدو؟ مـاذا قلـت؟ ولكـن حفاظـاً عـلى صورتـى

التى لا أقبل أن يمسها خدش ولو طفيف لم أبح بشئ وأُسِرت فى المنتصف بين وهم محتمل وواقع مُرتاب فيه.

أشحت بنظرى عن المرآة التى يبدو أنها قررت الانضمام بدورها إلى صف الكارهين، و عدت للغرفة لأجد والدة عاليا وأيمن بجوارها يتأملاها فى أسى وكأنهما ينظران إلى جثة فارقتها الحياة لا لامرأة نائمة فى سلام.

انتفضت الوالدة لرؤيتى، كما توقفت فجأة عندما تفاجأت بوجودهما وكأن كل منا التقى على حين غرة بأسوأ كوابيسه. هبت لتهاجمنى ، لولا أن أمسك أيمن بذراعها واستجداها قائلاً:

«أرجوك يا أمى ، لا الوقت يسمح ولا المكان مناسب لمثل هذه المواجهة، دعينا نطمئن أولا على «عاليا» ثم نحاسب وننفذ القصاص، قال كلمته الأخيرة وهو يرمقنى بنظرة يعلم جيدا أننى أعى معناها»

«استغفر الله العظيم، وحسبى الله ونعم الوكيل، هى اللى جابته لنفسها».

تركت لهم الغرفة، هربا من الماضى، والحاضر ورعبا من مستقبل ينتظرنى يحمل فى يده قصاصاً أجهل هويته.

قضيت اليوم فى كافيتيريا المستشفى، متواريا عن أنظار حماتى الحانقة التى تقطر سخطا كلما وقعت على ذيل خيالى،حتى

أننى لم تواتينى الشجاعة لأسألها عن ابنتى أو لأطلب رؤيتها، شعرت أنه لا يحق لى شيئا فى هذا المكان، وبعد رؤيتى لعاليا على هذه الحال الغريبة، تلاطمت الأفكار كأمواج متبارية فى رأسى الذى لم يعد يتحمل المزيد من الضغوط والترقب فأنا على حافة الانهيار، أقف على الخط الفاصل بين سلامة ما تبقى من العقل و الخبل.



انتحار

حبيبتـى المسـافرة فى عـالم مجهـول، نائمـة كطفـل وديـع بـلا همـوم، بعـد أن ألقـت بالجميـع فى قلـب بئـر ابتلعـت فى باطنهـا اللظـى، نتلـوى عـلى جوانبنـا رهبـة مـن الحقيقـة المحجوبـة، يضـج مضاجعنـا القـادم، و يضاعـف توتـر الأطبـاء وهـول عـدد الفحوصـات المُجـراة الرعـب فى نفوسـنا.

تركتك قديـماً مجبـوراً بقراراتـك الحمقـاء، وتركتـك الآن لأننـى لم أعـد أصلـح، لقـد صرت معطوبـا لا أصلـح لأيـة امـرأة فـما بالـك بـك حبيبتـى. يقولـون عنـى أنـى صرت درويشـا وبعضهـم يظـن أننـى مجذوبـا، وأنـا لا أعـرف الحقيقـة المخفيـة بـين طيـات نفسـى المعقـدة وبواطنهـا ولكننـى أدرك أننـى لم أعـد أيمـن الـذى عرفتيـه قديـما، فأنـا فى سـلام مادمـت بعيـدا عـن ترهـات البـشر وذرائعهـم المشـينة مـن أجـل بلـوغ غاياتهـم، و لكنـى أخطـأت فى حقـك عندمـا تركتـك الآن ، وأنـت تحتاجـين إلىَّ، وهـا نحـن عدنـا

إلى ما قبل البداية، إلى المجهول بكل ما يطويه من غموض ولن أسامح نفسى ماحييت وليكن ذنبى الذى سيذهب معى إلى قبرى ويسبقنى إلى البرزخ.

وضع يده على كتفى و قال:

أشرف: «أيمن.أريد أن أتحدث معك قليلا»

أيمن: بالتأكد يا دكتور أشرف.

أشرف: دعنا نخرج إلى الحديقة، لا أريد أن يتسرب أى من حديثنا إلى أذن أحدهم.

أيمن: تفضل.

أشرف: «أعرف أنه لا يحق لى التدخل فى أمورك، لكننى أعتقد أنه يجب علينا مصارحة بعضنا البعض، فعلى ما يبدو أن كلانا يهتم لأمر عاليا بشكل أو بآخر وترجيحى أن الفترة المقبلة ستكون غريبة على الجميع، لذلك رأيت أنه يجب علينا التحدث بمنتهى الصدق حتى نتمكن من مساعدتها»

أيمن:«ماذا تريد أن تقول؟»

أشرف: «أرى أنه يجب أن تعرف أننى قد عرضت الزواج على عاليا قبل أن أفاجأ بقرار عودتها إلى خالد، وأنها احتدت

علىَّ كثيرا عندما ذكرتك، لذاك أظن أنها كانت تنتظر هذا العرض منك أنت لا منىّ»

أيمن: «ولماذا تقول لى هذا الكلام الآن؟»

أشرف: «لأننى أعتقد أن جميعنا شارك بطريقة غير مباشرة فى قرار عودتها ، طبعاً بالإضافة إلى أن حالتها النفسية لم تكن مستقرة فى الفترة الأخيرة وأنها كانت فى حاجة إلى العلاج»

أيمن: «عن أى علاج تتحدث؟ علاج نفسى؟!»

أشرف: «نعم يا أيمن، هذا ما لامسته عندما كنت أواجهها بالحقائق التى تحاول إنكارها، بالإضافة إلى حالتها و أعراض الاضطراب وإهمالها لابنتها التى كانت توافينى بها والدتها عن بعد محاولة مساعدتها والأخذ بيدها دون أن تشعر، ولكن خالد تدخل فى الوقت غير المناسب لها والأنسب له وقام باصطيادها من جديد وهى فى حالة هزالها وهذيانها تلك.»

أيمن: «ولماذا تقول لى هذا الكلام الآن! أتريد أن تحملنى ذنبا على ذنب!»

أشاح أيمن بوجهه وأعطى ظهره لأشرف الذى أمسك بذراع أيمن وقال:

«عـن أى ذنـب تتحـدث ؟! أرجـوك يـا أيمـن تكلـم معـى حتـى نـقـذ مـا تبقـى»

استدار أيمـن و جلـس عـلى المقعـد الخشـبى، ثـم تنهـد فى أسـى وقال:

«لقـد تحدثـت عاليـا معـى فى أمـر زواجنـا، لقـد أرادتنـى أن أتزوجهـا يـا أشرف.تخيـل!! بعـد كل تلـك السـنوات، يأتـى إلَىَّ حلـم عمـرى طائعـاً، لينـاً فأرفضـه!!! لقـد كسرتهـا يـا أشرف فى وقـت كانـت تحتـاج فيـه إلى مـن يكـون لهـا ظهـر، ولم يكفنـى ذلـك، فقـد اختفيـت تمامـا .لقـد فزعـت. نعـم لم أعـد أصلـح للـزواج، لم أعـد كـما كنـت و لم أجـد طريقـة لأفـسر بهـا الأمـر فهربـت! كـم كنـت جبانـاً!»

لم يعـرف أشرف مـاذا يقـول، ارتمـى بجسـده بجـوار أيمـن وظـل الاثنـان صامتـين طويـلا ثـم قطـع الصمـت أخـيرا وقـال:

«كـم أنـت سـاخرة أيتهـا الحيـاة! هـل أدركـت مـا يحـدث؟ لقـد حُبسـنا جميعـا فى دائـرة واحـدة، كل منـا يرغـب فى أحـد لا يرغـب فيـه، كـم نحـن سـخفاء! ألهـذه الدرجـة نحـن عرائـس فى يـد الحيـاة!»

أيمـن:»لا تظلـم الحيـاة يـا أشرف، جميعنـا قمنـا بالاختيـار، وعندمـا وقفنـا وجهـا لوجـه مـع مـا اشـتهيناه لم نعـد مهيئـين لـه، أو

تغير هو و لم يعد يناسبنا، لقد أخطانا فى التوقيت، ربما لم يكن لنا من البداية و ربما كان عقاب كل منا على خطايا التخلى.»

أشرف: «ربما تكون مصيبا و المحصلة الآن خسارة فادحة للجميع، والخاسر الأكبر هى تلك المسكينة الملقاة على فراش الجمود. أصغِ إلىّ جيدا، فريق الأطباء قضى الثلاثة أيام الأخيرة فى إجراء العديد من الاختبارات والنتيجة غير مطمئنة ويجب أن تعيرنى تركيزك لتفهم جيدا ما سأقول.»

امتقع وجه أيمن، وأدرك من نبرة صوت أشرف وقسمات وجهه الوجلة أنه على وشك إلقاء قنبلة فى وجهه.صمت وانتظر أن يتلقى الصدمة المُقبلة.

تعرضت عاليا لإصابة خطيرة فى المخ، شملت جزء من الفص الأمامى أو **Frontal lobe** ويقع في الجزء الأمامي لكل من نصفي الكرة الدماغية إذ يتموضع في الجزء الأمامي للفص الجانبي ويحد الفص الصدغي أو **Temporal lobe** من الجهة العلوية الأمامية، والذى ناله نصيب من الضرر هو الآخر، الضرر الأكبر أصاب الفص الأمامى والذى يطلق عليه أيضاً مركز السيطرة على المشاعر، فبالإضافة إلى تحكمه فى الوظائف الحركية، العفوية، القدرة على حل المشكلات، الذاكرة واللغة، السيطرة على الانفعالات يؤثر على السلوك الاجتماعى و الجنسى، أضف إلى هذا الجزء المتأذى من الفص

الصدغى والذى أثر بدوره على الإدراك و الإحساس السمعى و نريد أن نتأكد من تأثيره على الشخصية و السلوك العاطفى لديها. هذا ما دفعنا؛ نحن فريق الأطباء القائم على حالتها، أن نتردد فى طمأنتكم عليها،لأننا كنا نجهل آثار الأضرار التى تعرض لها المخ، والعملية لم تأتِ بالنتيجة المرجوة نظراً للضرر الجسيم الذى نتعامل معه ، كما أن المخاطرة فى المس بأى منطقة قد تفقدها إحدى حواسها وقدراتها الحيوية المهمة.

لن أطيل عليك ولن أجرك داخل متاهة التفاصيل و تعقيداتها، ولكنك لاحظت بالتأكيد حالة عاليا، ذلك البرود العجيب المسيطر عليها، ونظرا لاعتقادى السابق بأنها تعانى من خلل نفسى ما، أرى أن تلك الحادثة نقلتها من منطقة مريض محتمل إلى مريض فعلى. ونظن أن جزء مما تعانى منه يشابه حالة **"Alexithymia"** «أليكسيثيميا»، تلك الحالة ستجعلها غير قادرة على التعبير عن مشاعرها أو بمعنى أدق لن تستطيع التحدث عن المشاعر؛ لأن إدراكها لها لم يعد موجودا، فموقفان أحدهما سعيد والآخر حزين لن يأتوا بردود أفعال مختلفة، و كأنك تتعامل مع تمثال بلا شعور. وبالطبع يمكنك أن تتخيل تأثير ذلك على الحياة الاجتماعية ، خصوصا أن الحافز أو التطلع لأى شئ سيختفى. عاليا كانت فريسة مناسبة جدا لهذه الحالة وأعتقد بعد كل ما مرت به،

سيتمسـك بهـا عقلهـا الباطـن وسـيصعب علينـا علاجهـا إن وجدنـا سـبيلاً لذلـك.

باختصـار، وأجـد صعوبـة بالغـة فى قـول ذلـك، عاليـا لم تعـد نفسـها.

أيمن..هل مازلت معى؟

أنـا لا أفهـم، لقـد سـمعتك جيـدا، ولكـن أعجـز عـن الفهـم ، هـل ماتـت وهـى عـلى قيـد الحياة؟هـذا ماتريـد قولـه؟ هـل قتلهـا وتـرك لنـا جثـة بـلا حيـاة تتحـرك بيننـا لتعذبنـا حتـى يحين الأجـل وتطاردنـا لتقـف وجهـا لوجـه معنـا أمـام الميـزان؟!

أيمن..أرجـوك تمالـك أعصابـك، الأمـر يتخطـى ذلـك كلـه، أنسيت أنهـا الآن زوجـة خالد كيف إذن سـنخلصها منه وهى على هذه الحالة، لن تعترض على شئ و لن تشـعر بالرغبة فى أى شـئ .

«هذه إذن فرصتنا»

«ومن سيسمح لك؟ خالد؟ أم القانون؟»

«ألن يرغب فى التخلص من عبئها الآن؟»

حتـى وإن أراد ذلـك، أنـا أريدهـا معـه، عـل وجودهـا فى حضرتـه يصدمهـا ويوقـظ بداخلهـا الرغبـة فى العـلاج فتسـتجيب لمحـاولات إنقاذنـا لهـا.

اتسعت حدقتا أيمن، فقال أشرف:

« الوضع أكثر تعقيدا مما يبدو.»

ألـن نسـتطيع أن نحاسـبه؟ أبعـد كل هـذا الانتظـار المريـر؟ سنتركها لـه ببساطة آملين فى احتمال لا يتعدى الواحد فى المئة؟!

بالطبـع لا، لـن نتركهـا ، سـنقوم بـكل شـئ ممكـن، بدايـة مـن العـلاج النفسـى وأسـاليبه الحديثـة وصـولاً إلى العمليـات الجراحيـة وفـق مـا سيقره الدكتـور «فريدريـك» .أريـد أن أُذَكِّـرَك مـرة أخـرى، هـى زوجتـه وعـادت إليـه بإرادتهـا وإن كانـت الذاكـرة مشوشـة أو المشـاعر معطبـة لـن تذهـب لتقـاضى شـخصاً نيابـةً عـن زوجتـه التـى لا تعـى الأمـر و ربـما لاتريـده.

حـاول أن تتخلص من شـعورك بالذنـب الآن، فلن يجدى نفعاً.

«كيـف تسـتطيع أن تتحكـم فى أعصابـك بهـذا الشـكل؟ لقـد تمكنـت عمـرى كلـه مـن الحفـاظ عـلى موقعـى فى دائـرة الهـدوء وعـدم الانفعـال مـا استطعت ولكـن الوضـع الآن وحديثـك هـذا أتلف الدائـرة وحـل زمـام سيطرتى على مشـاعرى! كيـف تحافظ أنـت عـلى هـذا الهـدوء؟؟ هـل أحببتهـا حقـا!!

«لأنـى الآن أتحـدث مـن موقـع المسـؤولية! ويكفينـا واحـد بأعصـاب تالفـة!! لاتحاسـبنى الآن وأنـا أقـوم بواجبـى فأنـت تعلـم جيـدا أن الوضـع قـاسٍ عـلىِّ» . أجـاب أشرف فى حـدة

«اعذرني يا أشرف ولا تؤاخذني على انفعالى، لأنني ولأول مرة منذ زمن أشعر بهذا الكم من الارتباك والعجز عن فعل أى شئ.

«أنا أتفهم الوضع جيدا ، لاعليك.

والآن كيف تريد أن تخبر والدتها؟»

لقد نسيتها! اتركها لى سأحاول تبسيط الأمر لها رغم أننى أعلم جيدا كيف سيكون رد فعلها.

تنهد أيمن فى انكسار ، «يبدو أن الأمور تسير نحو المزيد من التعقيد.»

هز أشرف رأسه فى أسى ثم قال:

«أما خالد فاتركه لى..»

***

جلسنا متقابلين حول تلك المنضدة الخشبية الصغيرة، فى تلك الكافيتريا البسيطة المطلة على النيل، وأمامنا أكواب الشاى المتسرب منها دخانها فى تمايل متدلل وغنج، وكأنه يخشى أن تلتفت إليه برودة الجو الصباحية فيصافحة الندى ويفسد عليه رحلته.

تلفحنا بالصمت، والأفكار المتشابكة تعبث بعقولنا التى أعياها سهر الأيام الماضية، كل على حدا غارق فى مخاوفه، مخاوف من البوح والجرح والصفع بحقيقة تجعلنا عاجزين عن الصفح .

أمسكت بالكوب ؛ الذى لم أعد أتحمل تأمله أكثر من ذلك، بكلتا يداى، تنحنحت، فمالت قليلاً للأمام وكأنها تريد أن تستجمع كامل تركيزها و تطرد أى تشويش سمعى قد يمنع عنها بعض حروف لاذعات.

كبيت ما فى جعبتى أمامها. وقف بيننا المنضدة الصغيرة و أكواب الشاى الباردة شهوداً على حديثنا الهامس، حاولت أن أجعل الأمر يبدو أقل حدة و لكننى فشلت، نعم، أدركت فشلى عندما تسمرت مكانها وهى فى وضعها المائل غير المريح والدموع تنساب حرة من مقلتيها تقتل حرارتها برودة اليوم.

أعدتها إلى المستشفى بعد أن حرصت على شرح الأمر لها كما ينبغى محاولا تجاهل التوتر الذى تملك من الأجواء، وأصاب كلانا بتوعك بادٍ بشكل لا يخطئه كل من يرانا.

نزلت أمام المستشفى وانطلقت بالسيارة، مسرعاً، هارباً من الوضع المأزوم، وبقيت أفكر فى ملاذ أخلع فيه عنى كل الصرخات المكتومة بصدرى و لم أجد أفضل من شجرة السنديان.

***

قرر الأطباء بعد مباحثاتهم ؛ التى لم تنقطع على مدار أيام، على عودة «عاليا» إلى حياة ما قبل الحادث، هادفين إلى زرعها فى بيئة تستفز مشاعرها علَّه يكون عاملا مساعدا فى رحلة علاجها. حاولت أمها مقاومة القرار، ولكن بلا طائل، ومن جانبه تجادل أشرف مع الأطباء كثيرا محاولا إقناعهم بعودتها إلى منزل أمها حيث أنها لن تتمكن من رعاية ابنتها على الأقل الآن، ولكنهم رفضوا هذا الحل حيث أنهم وجدوه غير نافع لها، فوجودها تحت رعاية الأم التى ستدللها بلانهاية لن تستفز لديها المشاعر المراد اختبارها بخلاف وجودها مع الزوج .

أما أيمن، فلم يبد أية مقاومة للقرار، وانغمس فى صمته وحزنه يتبادل نظرات الأسى مع والدتها بلاكلمات أو محاولة فاشلة للمواساة، وعندما دخلت عليها أمها لتحزم حقيبتها، وقالت وهى تدعى الانهماك:

«هيا ، سنرحل»

«لم تتحرك. وظلت هكذا بلا حراك ثم سألت أخيراً بلا اهتمام فعلى «إلى أين سنذهب؟»

أجابت متحاشية النظر إليها:

«ستعودين إلى بيتك، حيث زوجك و ابنتك»

لم تبـد عاليـا أى انفعـال، تعاملـت و كأنهـا لم تسـمع شيئا، وكأن والدتهـا لم تجبهـا قـط.

سِـيقت أمامهـم جميعـا كذبـح يتجـه نحـو المقصلـة، بـلا إرادة أو مقاومـة، وكأنهـا فى حالـة خـدر عميقـة، خالـد الـذى ظـن أنـه سيكون سـعيدا بنجاتـه وفـوزه على الجميـع، بـدا عيـه الاضطـراب مـن الوضـع الجديـد، لم تكـن لديـه أيـة فكـرة عـما ينتظـره، وكيـف سـيتعامل معهـا؟ ومـع ابنتيهـما دون وجـود أحـد يسـاعده ويأخـذ بيـده، وهـل سـتوافق والدتهـا عـلى المجـئ و مسـاعدته أم أنهـا سـترفض و تتلـذذ برؤيتـه فى وضـع مـأزوم جـزاءً لـه ؟ وبالطبـع لـن تفكـر والدتـه فى معاونتـه، فهـذا لم ولـن يصبـح يومـا مـن شـيمها، هـى التـى لم تفكـر يومـا فى زيارتهـا فى المستشـفى أو مكالمتـه للاطمئنـان عـلى أحوالهـم بعـد مكالمتهـا الأولى و الأخـيرة عندمـا عرفـت بالحـادث:

«هـل ماتـت أم مازالـت عـلى قيـد الحيـاة؟» هكـذا اسـتهلت مكالمتهـا

«مازالت على قيد الحياة» ،وهكذا أجاب ببساطة

«جيد. أدر بالك على نفسك.سلام» و لم تزد.

تسـير أمامـى بهـدوء، بـلا مقاومـة ،أحمـل فـرح عـلى ذراعـى اليمنـى وحقيبـة عاليـا عـلى ذراعـى اليسـرى، كان المصعـد معطـلا،

فبدأنا فى الصعود على السلالم ، تباطأ الزمن، وشعرت بقطرات العرق تملأ جبينى وفرح تلعب فى أذنى بمتهى الاستمتاع وكأننا فى نزهة، لم أتضايق تلك المرة منها ولم تضايقنى السلالم التى لا تنتهى، ولم يضايقنى حملى الذى على كتفى ، بل ضايقنى شبح المرأة الصاعد أمامى، وكأن أشباح الماضى التحمت مع الحاضر فتجسدت فيها لتحرمنى من أيام عمرى القادمة، حتى فرح كانت تجسديا لعاليا الطفلة قبل أن يعبث بها الزمن و الناس، الآن هى مسؤوليتى بعد أن قمت بتدمير أمها، فكيف لى أن أحافظ على بذرة المرأة التى أحلتها إلى شبه حية، أنا حتى لا أعرف إذا ما كنت أحب فرح، إذا ماكنت أشعر تجاهها بمشاعر أب لابنته، أنا لا أدرى أصلا كنه هذه المشاعر، فكيف لى أن أمنحها، لا لا أستطيع.

أشعر بالإعياء وأننى سأفقد توازنى فى أية لحظة، ها هو باب الشقة يلوح من الجانب لقد أوشكنا على الوصول، هانت..لقد وصلنا. توقفت عاليا كطفلة مهذبة تنتظر الكبير ليمر أولا، أنزلت الحقيبة، أخرجت المفتاح و مع صوت المفتاح وهو يتحرك شعرت بأننى فقدت دقة من دقات قلبى، ومع أول خطوة داخل الشقة فقدت دقة أخرى، تبعتنى عاليا وبنظراتها المتنقلة بين الأثاث المنثور والعبث الذى غزى

الشـقة، عـادت إلىّ ومضـات الليلـة السـابقة بـكل تفاصيلهـا ولم يرجعنـى إلى الواقـع إلا فـرح التـى بـدأت فى نوبـة مـن البـكاء.

نظـرت إلى عاليـا فوجدتها قـد جلسـت بـدون أدنـى إحسـاس فى عينيهـا، فتأكـدت الآن أن مهمتـى القادمـة سـتكون عسـيرة، و ربـما تكـون لى تكفـيرا عـن عمـرى السـابق كلـه والآتـى.

مـرت الأيـام عـسرة، مُـرة، لجـأت إلى الاسـتعانة باحـدى المربيـات المتخصصـات لترعـى فـرح، وعـدت للحيـاة بمفـردى، ولكـن زال تأثـير كل مـاكان يثيرنـى ويطربنـى، كل شـئ فقـد لونـه ومعالمـه التـى تميـزه، حتـى وجهـى فى المـرآة لم أعـد قـادرا عـلى التعـرف عليـه، بـل وأتفـادى فى كثـير مـن الأوقـات مجـرد اختلاس النظـر إليـه، منـذ آخـر مـرة، عندمـا أردت حلاقـى ذقنـى فتفاجـأت بشـخص لا أعرفـه، شـخص أضـاف إلى وجهـى عشر سنين ويحـاول إقناعـى بأنـه أنـا، فتركـت صورتـه عالقـة فى المـرآة وذهبـت إلى الحـلاق ليقـوم هـو بتلـك المهمـة .

امتنعـت والـدة عاليـا عـن المجـئ، قاطعتنـى تمامـا، لم تعـد تحتمـل رؤيـة ابنتهـا عـلى هـذه الحـال، لم تعـد تطيـق رؤيتهـا جنبـا إلى جنـب مـع مـن سـلبها الحيـاة وهـى فى أوج ازدهارهـا.

بعـد فـترة قصـيرة، أصيبـت فـرح بحمـى شـديدة و كنـت فى العمـل تـاركاً إياهـا مـع المربيـة، جذبتهـا منهـا وألقيـت بنـا داخـل

السيارة وأنا أسوق كالمجنون حتى وصلت إلى المستشفى، وقبل أن نصل إلى الطوارئ كانت قد فارقت الحياة.

ماتت، و لم يعد هناك بكاء أو صراخ لا أعرف له سبباً.

تلقت عاليا خبر وفاة ابنتها بالبرود نفسه، وحضرت عزاءها الذى أقمناه فى منزل والدتها زائغة النظرات وكأنها لا تستوعب ما يجرى، كأن من ماتت ليست فلذه كبدها ، تنظر إلى المنتحبات الباكيات بتعجب وبرود، أما والدتها ما إن وقع نظرها علىَّ حتى تشبثت بعنقى و أخذت تعتصره وهى تصرخ وتتهمنى بقتل ابنتى، ولم يخلصنى منها سوى أيمن وأشرف .

بعد العزاء اختلا أيمن بعاليا، حاول أن يجرى معها حوار، راقبتهما من بعيد، ظلت هى على برودها أما هو فقد انفعل وأخذ يبكى ويرجوها أن تفيق ولكن دون جدوى، ففتح كف يدها ودس شيئاً بداخله ورحل.

ظلت واقفة للحظات بعد رحيله، وفتحت كف يدها لتجد ورقة صغيرة منكمشة، فأغلقت كفها من جديد عليها توجهت ناحيتى.

***

كيـف حـدث ذلـك؟ كيـف شـاخت هكـذا وصـارت مجـرد جـذر يابـس لم يُقتلـع مـن الأرض بعـد.

ناديـت «عطيـة» البـواب فى عصبيـة و حـزم، فأقبـل علىَّ راكضـاً، ممسـكاً بطـرف جلبابـه الفضفـاض وهـو يكـرر «أيـوه، أيـوه جـاى أهـوه»

«إيه اللى حصل يا «عطية»؟ إيه اللى جرا للشجرة؟»

«اسـكت يـا بيـه، ماحـدش عـارف. بيقولـوا إن الشـجرة دى عمرهـا طويـل قـوى، حتـى السـت الكبـيرة»الله يرحمهـا» بعتـت جابـت نـاس يشـوفوا مالهـا أوراقهـا بتقـع دلوقتـى ليـه ؛ ماعرفـش جايين منين بس شكلهم فاهمين، قالـوا دى حاجـة غريبـة جـدا، حتـى الجـدور بتمـوت و خشـبها جالـه عيـا كـده مـا فهمتـش إيـه، قالـوا المفـروض إن لسـالها سـنين كتـير تعيشـهم ، بـس ماتـت ،الشـجرة زى ماتكـون انتحـرت يـا بيـه»

«ومتسابة كده ليه يا عطية»

«ماعرفـوش يقلعوهـا يابيـه، بيقولـوا جدورهـا اتمـدت عـلى الآخـر وممكـن البيـت يقـع»

«طيب يا عطية، روح أنت، سلامو عليكم»

«فى حفظ الله يا بيه»

وانتحرت السنديان، كصاحبتها التى رحلت روحها عن جسدها الذى مازال ينبض، انتحرت و لكنها رفضت ترك بقعتها التى شهدت على حياتها، رفضت أن تُقتلع جذورها فتُنسى كما نُسى الراحلون»

***

انقلب السحر

ها أنا جالس فى صمت مميت، أراقبها عن كثب، امرأة ماتت وهى على قيد الحياة، غضة العود ، بضة الوجه، آية فى الجمال ولكنه جمال جامد لاينطق ولا يشعر بشىء، لوحة ثابتة ينقصها إطار ويصبح الحائط محلها الأنسب.

أتساءل هل ما حدث لها ذنبى أم ذنبها؟ أيحدث هذا لأننى تمردت على امرأة طالما أحبتنى بشغف، وأغدقت علىَّ من نبع أحاديثها ومزاحها و شكواها؟ أذنبها أنها أرادتنى لها كل شئ بعد أن حاولت جاهدة أن تكون لى كل شئ؟ أيكون رد الجميل النكران، فالخذلان، فالتبلد؟ أعقابها هذا أم عقابى الأبدى. هل رحمها الله من العذابات التى أسقيتها إياها كل يوم لتنتقل إلىِّ و تطعننى فى اليوم ألف مرة.

كثيراً ما استجارت بى منى ولم تحاول أن تشكونى لأحد إلا بعد أن حاولت قتلها، وأنا جعلت من لعنها وتبرمى منها تسلية لى . كثيراً ما استضعفتها وقمت باستغلال قلة حيلتها أحط استغلال، حبيبتى لم تكن يوماً ضعيفة ولم تكن يوماً قليلة الحيلة ولكنها أحبتنى وأرادت أن تشركنى معها فى كل شئ، صانت سيرتى وأنا قطعتها إرباً بسكين ثلمة، ما أحقرنى وما أجملها.

كم أنا بائس، يصب الكون جم غضبه علىَّ وكأنه ينتقم ويجبرنى على التكفير عن ذنوبى الفادحة وعن أنانيتى، يمطرنى بالألم ليطهرنى به من العفن الذى أصاب روحى، ويجلد نفسى لتتهذب ولكنه يبدو عذاباً بلا نهاية، طريقاً مفتوحة بلا نقطة وصول، بلا عنوان محدد بلا مرسى.

تقوم من مجلسها فأقوم خلفها فى هدوء ؛ اعتدنا عليه فى الفترة الأخيرة منذ نجاتها من ذلك الحادث المريع، وتتجه نحو غرفة النوم فتغوص فى نعومة تحت الغطاء وتُغمِض عينيها لتروح فى سبات سريع وأنا مازلت واقفاً أشاهد هذا المشهد البطئ وغُصة حمقاء تصر على التفاقم مع كل ثانية تمر.

هرب النوم منى وذهب إليها بعدما كنت أغط فى نوم عميق وتظل هى مستيقظة يؤنسها الليل ويعزيها الأرق الذى تحول إلى أعز أصدقائها.

هاجمنـى ليلتهـا الجميـع، أقبلـت أمـى عـلىَّ بقميـص نومهـا الأسـود الفاضـح لـكل مفاتنهـا ولحمهـا الأبيـض يشـع مـن فتحاتـه، يثـير الشـهوات ويتمكـن مـن عقـول أسـكرها الهـوى. أقبلـت تضحـك ضحكتهـا الرقيعـة و تتمايـل فى غنـج وإغـراء، ورجـل مـا يمسـك خصرهـا بكلتـا يديـه فى شـهوة ،اقتربـت أكثـر حتـى كادت أرنبـة أنفهـا تلامـس أنفـى، و رائحـة الدخـان تخـرج مـن أنفاسـها تصيبنـى بالهذيـان، ومـن خلفهـا طلـت دعـاء، بالبنطـال الجينـز و الـ-تـى شـيرت الأبيـض، ولكنـه كان ملطخـا بالدمـاء، كلـما اقتربـت خطـوة كلـما زادت قطـرات الدمـاء.

المتسـاقطة، لاتتـألم، لا تـصرخ، لا تسـتجير، تنظـر إلىَّ فى غضـب، بنظـرات يملؤهـا الانتقـام و تغذيهـا الكراهيـة، رفعـت يدهـا و رأيتهـا ممسـكة بسـكين لُطِخَـت هـى الأخـرى بدمـاء قـد تخثـرت عليهـا وإذا بهـا تهـوى عـلىَّ حتـى تلاشـت وظهـر مـن حـولى كل الفتيـات والنسـاء اللاتـى ضاجعتهـن، كل النسـاء اللاتـى أسـأت معاملتهـن، يتمايلـن، يضحكـن، يقبلـن مـن كل اتجـاه وكأن هنـاك مضخـة تلفظهـم بـلا توقـف، حتـى ظهـرت مـن بينهـن عاليـا بوجههـا الهـادئ، ونظراتهـا الزائغـة، مـدت يدهـا لتعطينـى فـرح، التـى كانـت تـصرخ وكأنهـا تسـتنجد، تستسـغيث ترجـو أمهـا ألا تتخـلى عنهـا و تعطيهـا لذلـك المخبـول، لم أعـد أتحمـل، لا أطيـق، لا يمكـن أن أسـتمر، هرولـت كالمجنـون، أبحـث عـن طـوق

النجـاة، فـإذا بهـا تلمـع، تداعبنـى و تغرينـى لكـى أقـترب منهـا و ألتقطهـا، فأمسـكت بهـا و مـررت سـبابتى عليهـا لأتاكـد مـن حدتهـا، وغرسـتها فى قلبـى الفاسـد، فـإذا بدمـى السـاخن يفـارق جسـدى العـاصى، ونفسـى تفارقنـى فأختنـق، و ظـلال مـن دخـان أحاطتنـى وأظلمـت الدنيـا.

بصوت ثابت، لايهتز، لاينم عن الكارثة التى أطلعتنى بها

«آلو،أيمن؟»

«نعم؟؟ هل هذه أنت يا عاليا؟!»

«نعم.خالد انتحر»

«انتحر!!! قصدك إيه؟!»

«انتحر. لقيته غرقان فى دمه»

ثـم وضعـت السـاعة، لم أدر مـا العمـل، شـعرت بأننـى فى كابـوس، لم أجـد سـوى أشرف، أخبرتـه بالأمـر فصعـق، وأخـذ يكـرر السـؤال كالمهووس.انتحـر كيـف؟ مـاذا تقصـد؟ هـل مـات حقـا؟!

رجوتـه أن يهـدأ، وشـددت عـلى أنـه يجـب علينـا التـصرف فعاليـا الآن مـع جثتـه فى الشـقة وحدهـا، ويجـب أن يتـولى أحـد الأمـر.

أردنا أن نتأكد أولا من صحة الخبر وذهبنا إلى منزل خالد بصحبة سيارة إسعاف، ضربنا جرس الباب ففتحت لنا فى منتهى الهدوء وكأنه يوم عادى كسائر الأيام بلا إثارة، بلا كارثة! أشارت إلى غرفة النوم فتوجهنا إليها وكلانا يتمنى أن يكون الأمر مجرد هلاوس بصرية قد أصابتها، ولكن الدماء الساخنة التى سبقت وصولنا إلى وجهتنا أجبرتنا على مواجهة الأمر، وعندما اقتربنا وجدنا سكينا مزروعا فى صدره، تماما موضع القلب.

أسرع أشرف بطلب الشرطة والإبلاغ عن الحادث، واختلطت الأمور فى ذهنى فقد اختلط الهرج و المرج ولم أعد قادرا على فصل الأحداث وتفنيدها. أنهى الضابط معاينة المكان،و انتقلت الجثة من المنزل إلى المشرحة، وعاليا مستكينة، هادئة بصورة مستفزة.

أطلعنا الضابط أنه سيتم استدعاء الجميع للتحقيق لحين صدور التقرير الطبى، أغلقت التحقيقات نظراً لتاريخ خالد الطبى وثبوت تعاطيه أدوية لعلاج الاكتئاب فى الفترة الأخيرة.

أقيمت مراسم العزاء فى منزل والدتها أيضاً بناءً على طلب عاليا الأول منذ الحادثة، وعندما رحل كل المعزون، نزلت عاليا ووقفت بجانب السنديان المنتحرة، وضعت خدها

الأيمـن عـلى جذعهـا واحتضنتهـا وأغلقـت عينيهـا وتسـمرت عـلى هـذا الوضـع قرابـة النصـف سـاعة.

تبـادل أشرف معـى نظـرات ينسـاب منهـا الشـك، والحـيرة و قبـل أن يقـول مـا فتـح فمـه لينطـق بـه، عاجلتـه قائـلاً:

«مهـما كان مـا حـدث، فقـد اسـتحق المـوت، لقـد اكتفـت الحيـاة بضحاياه»

أطرق، ثم توجه إلى سيارته فى صمت.

نظـرت خلفـى، لأراهـا كـما هـى ، محتضنـة شـجرتها وابتسـامة قـد رُسِـمت عـلى شـفتيها، ولم تتحـرك إلا عندمـا جـاءت والدتهـا. تحسسـت شـعرها الحريـرى وطبطبـت عـلى ظهرهـا فى حنـان، فذهبـت معهـا دون النظـر للخلـف، دون النظـر إلىَّ، رحلـت و لم أسـمع عنهـا خـبراً بعـد ذلـك.



الخاتمة

لعقلنا الباطن قدرات وألاعيب عجيبة، تمكنه من خداعنا، يسوق أمنياتنا المخفاة فى البواطن ليتآمر معها علينا، ليجعلنا نصدق أننا نحب شخصاً ما، رغم أننا لا نطيقه، يجعلنا نصدق أننا ضحايا رغم أننا الجناة الفعليون، يجعلنا نؤمن بأمر نكفر به ، يجعلنا نلقى خيباتنا على شماعة صنعناها من أفراد ليس لهم ذنب فى تعاستنا وسوء حظنا، أو يجعلنا نخنع لسادٍ يعذبنا ويتلذذ بعذابنا، يتلاعب بنا عن طريق رثائنا المبالغ لحالنا، يتلاعب بنا عن طريق الأمنيات، وأحلام اليقظة التى أضعنا لجامها، فأرضختنا لها بدلا من أن نسوقها نحن.

حاذر من الصورة، فهى لا تقول الكثير، هى شخص كتوم لا يفصح عن الوجه الحقيقى و يظهر فقط ماتريد أنت أن تراه.

تمت

التواصل مع داركتاب

Email: darkitabone@gmail.com

fasbook: darkitabone

البدج داركتاب

٠١٠٩٧٥٥٣٣٢٨